صلاح الدين الصفدي كاتباً

إعداد

سلامة هليل عيد الغريب

إشراف الأستاذ الدكتور

سمير الدروبي

قسم اللغة العربية/ جامعة مؤتة

٢٠٠٠م

المقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بصلاح الدين الصفدي وجهوده النثرية، وتبرز في طياتها الفنون النثرية التي أبدعها وتكشف عن الحركة الإبداعية التي حظي بها ذلك العصر، فجاءت هذه الدراسة لتضيء جانباً -ولو يسيراً- من أدب ذلك العصر مبعدةً عنه ما استطاعت شبح الانحطاط الذي وصف به.

جاءت الدراسة في تمهيدٍ وثلاثة فصول وخاتمة. خصص التمهيد لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فقد ركزت الدراسة في الجانب الاجتماعي على طبقتي الخاصة والعامة وما أحدثته الطبقية من فوارق. أمّا من الناحية الثقافية فقد كشفت الدراسة عن دور العلماء والسلاطين والمدارس والمساجد في إثراء الحياة الثقافية وأبرزت كذلك دور المرأة وكبار التجارفي بناء المدراس وبيّنت كيفية تنظيم الإجازات العلمية وتقريض المصنفات، انتهاءً بالمسوعات العامة والخاصة.

أمّا بالنسبة للحياة السياسية فقد انصبت الدراسة على الأحداث الجسام التي مهدت لظهور دولة المماليك، وبيّنت إسهامات السلاطين الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في توطيد الحكم المملوكي.

وتناولت الدراسة في الفصل الأول حياة صلاح الدين الصفدي من حيث اسمه ولقبه وكنيته ومولده ونشأته وشيوخه وتلاميذه وعمله ومؤلفاته وآراء العلماء فيه ووفاته.

وفي الفصل الثاني ركّزت الدراسة على مضامين نثر الصفدي من رسائل ديوانية وإخوانية، ورسائل وصف وألغاز ومقامات وتقاريض وإجازات وكتب صداق.

وخصص الفصل الثالث للدراسة الفنية مزاوجاً بين المفاهيم النقدية الحديثة كالتناص والفنون البديعة كالجناس والسجع والموازنة والطباق.

وفي الخاتمة تم رصد أهم النتائج التي توصلت إليها الدارسة.

وقد تعددت مصادر هذه الدراسة إلا أنَّ أبرزها كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر» لصلاح الدين الصفدي ومما زاد في أهمية هذا المصدر أنه أُلّف في فترة متأخّرة من حياة الصفدي.

ومن المصادر كذلك كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي (٨٢١هـ/ ١٤١٩م).

ومن المصادر المهمة كذلك مقامة «رشف الرحيق في وصف الحريق» للصفدي. وكتابه الكبير «الوافي بالوفيات».

ومن مصادر الدراسة المهمة كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» للشهاب محمود الحلبي (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) وكتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ومما زاد في أهمية هذين المصدرين أنّ مؤلفيهما من شيوخ الصفدي.

التمهيد

الحياة الاجتماعية:

يعرف المجتمع بالمعنى العام بـ:

أنة «ذلك الإطار الذي يجد العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه في هيئة وحدات أو جماعات»[1].

أما الحياة الاجتماعية فقد اتفق علماء الاجتماع على أن المقصود بها جميع نواحي النشاط الإنساني في فرحه وترحه من عادات وتقاليد وغير ذلك من أمور[2].

والمجتمع في كل زمان ومكان لابد له من فئات، وطبقات كي يتبادل أفراده المنفعة، ومن أهم طبقات المجتمع طبقتا السّاسة والعامة، فلا يكاد يوجد مجتمع يخلو من هاتين الطبقتين، فالطبقة الحاكمة في المجتمع المملوكي كما ترى حياة الحجي، هي «طبقة المماليك من السلاطين ، والأمراء والأجناد »[3]. وهذه الطبقة تمارس نشاطاتها - كما ترى الحجي -دون رقيب أو حسيب، فاحتكروا مزاولة مختلف النشاطات السياسية، والفعاليات الاقتصادية، والإسهامات الاجتماعية، حتى كانوا في الاستفراد والاحتكار سبباً رئيساً في حرمان العامة من المشاركة في كافة تلك المظاهر [4].

أما الطبقة الثانية فهي طبقة العامة، ويصنفها بولياك بأنها «من الفلاحين والبدو والعبيد والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا من الفوارق والطبقيّة، التي نتجت عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، مما أدى إلى تمردهم المستمر ضد نظام الحكم القائم وقتذاك»[5].

---

(١) مصطفى الخشاب، **دراسة المجتمع**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م، ص٧-٨.

(٢) عاشور: سعيد عبد الفتاح، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م، ص٢.

(٣) الحجي: حياة ناصر، **أحوال العامة في حكم المماليك** ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع- الكويت، ط١، ١٩٨٦م، ص١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص١٦.

(٥) المرجع نفسه، ص١٦.

وهذا التقسيم قد لا يكون أحصى طبقات العامة جميعاً، فهناك بعض الطوائف كما تشير حياة الحجي من العاطلين عن العمل، ومحترفي البطالة، والحرافيش الذين طالما كان لهم دورٌ في الكثير من الحوادث الجارية وقتذاك[1].

ويشير المقريزي إلى تقسيم المجتمع في عصره إلى طبقات سبع علماً بأن تقسيمه كان على أساسٍ اقتصادي، والاقتصاد جزء من الحياة الاجتماعية- فيقول: «اعلم- حرسك الله بعينه التي لا تنام- أن المجتمع بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة[*] ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السّؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم»[2].

وتكشف المصادر القديمة اللثام عن الحياة السيئة التي عاشها الشعب في ظل دولة المماليك، من كوارث جمةّ منها ما سببه الحكم السائد، والبعض الآخر ناتج عن كوارث طبيعية.

وإذا فصّلنا القول في هذه الكوارث، لا بدّ من الوقوف عند ما سببه الحكم آنذاك،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٦.

(*) جند الحلقة: - وهم عدد جم وخلق كثير وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات ولكل أربعين نفساً منهم مقدم منهم.
انظر القلقشندي؛ أحمد بن علي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين عماد الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٤/ ص١٦.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **إغاثة الأمة بكشف الغمّة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ص٧٢-٧٣.

فيذكر لنا المقريزي في أحداث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م حيث يقول: «وفي هذه السنة بلغ القُرط الذي قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات بأرض مصر ما مبلغه خمسون ألف دينار، وفي هذه السنة ارتفعت الأسعار بمصر، فبلغ الإردب القمح نحو المائة درهم نقرة(*)»[1].

وهذه المبالغ الكبيرة التي تستهلكها الخيول والجمال السلطانية، ما هي إلا من أموال العامة التي تصل الليل بالنهار من أجل لقمة العيش، ويضيف المقريزي في أحداث السنة ذاتها "ثم اشتد الحال بالناس حتى أكلوا ورق اللفت والكرنب وخرجوا إلى الريف، فأكلو عروق الفول الأخضر»[2].

ويعزز ما ذهب إليه المقريزي ابن كثير، حيث يصف لنا غلاء الأسعار- وهذا في الشام- في أحداث سنة ٦٦٠هـ "وفيها وقع غلاء شديد بالشام فبيع القمح بأربعمائة والشعير بمائتين وخمسين واللحم الرطل بستة أو سبعة »[3].

وإذا تتبع الباحث في تلك الفترة عن هذه الأحوال، سيجد الكثير في تلك الكتب، ولذلك ألف بعضهم كتباً تمثل هذا الجانب، ومثال ذلك كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي.

أما عن النوع الثاني من الكوارث التي حلّت بالمجتمع في تلك الفترة، فهي الكوارث الطبيعية التي أفزعت الأمة، ففي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م يصف لنا ابن كثير كارثة طبيعية فيقول: «وفي أواخر ذي الحجة هبت ريح شديدة، أغرقت مائتي مركب

(*) دراهم النقرة: - وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية"، انظر القلقشندي صبح الأعشى، ٣/٥٠٩.

(١) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة مطبعة دار الكتاب المصرية ١٩٣٦، ج١، قسم٢ ص٥٠٦.

(٢) المصدر نفسة ٢/١ ص٥٠٦-٥٠٧.

(٣) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي(٧٧٤هـ/١٣٧٢)م، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جزء ١٣، ص٢٤٧.

في النيل، وهلك خلق كثير، ووقع مطر شديد جداً، وأصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار»[1].

ولولا شدة وقع هذه الكوارث على المجتمع في تلك الفترة لما تصدّى لها المؤرخون بالرصد والتسجيل، ولو كان أثرها ضئيلاً لما تصدرت حوادث الدهور في تلك الأسفار.

ومثل هذه الحوادث تترك في النفس البشرية الفزع والهلع، فقد تركت أثراً بالغاً في حياة الطبقة العامة، وعلى أثرها تمسك الناس بعرى الدين الحنيف، وهذا ما يذكره المقريزي في أحداث سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م إثر معركة وقعت بين التتر والمسلمين «وقد كان أهل مصر صاروا يقنتون في صلواتهم، وكثرت قراءة صحيح البخاري، وأقبل الناس على تلاوة القرآن، وتجمعوا في المشهد الحسيني في الجوامع والمساجد، وكثر ضجيجهم ودعاؤهم»[2].

ومهما يكن من أمر فإنَّ طبقة الحكّام قد استأثرت بالثروة والسيادة، ويؤيد ما ذهبنا إليه فوزي أمين، حيث يقول : «عاش المماليك وأعوانهم من رجالات الدولة والقائمين على الأمر فيها طبقة مستعلية، تتفيأ ظلال النعيم، وتلهو بالمال، تبعثره يمنة ويسرة، بينما الشعب الكادح يرزح في أغلال الفقر، ترهقه الضرائب، وتثقل خطوه أعباء الحياة، وتفصل بينه وبين الأمل حواجز من اليأس، والقهر»[3].

وفي ظل هذا النظام الذي أوجد هوّة بين السلطة والعامة، نشأت أمراض اجتماعية كثيرة، مزقت جسد العامة، ومن أهمها الرشوة، "وأصبحت الرشوة عرفاً سائداً، ولا غرابة في ذلك طالما أصبح المال المطلب الأسمى، والقيمة العليا، وأصبح الدرهم شفيعاً

---

(١) المصدر السابق، ٢٦٩/١٣.

(٢) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ج١ق٣ ، ص٦٩٧.

(٣) أمين: فوزي؛ **المجتمع المصري في العصر المملوكي الأول**، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص١٣١.

لا يمكن ردّه، وبلسماً شافياً لكل جرح[1]:

ويقول في ذلك أثير الدين أبو حيان[*]:

أتى بشفيـــع ليـــس يمكن ردّه دراهـــم بيـــض للجـروح مراهم

تصيّر صعب الأمر أهون ما ترى وتقضـــي لبانات الفتى وهو نائم[2]

فيرى أبو حيان أنَّ مَنْ لديه مالٌ، باستطاعته قضاء حاجاته دون كدّ أو تعب، فهي التي تشفع له مهما اقترف من ذنوب وآثام، وتبلّغه في الوقت نفسه ما تهواه نفسه من المراتب.

والمتتبع للحياة الاقتصادية في عصر المماليك، لا يكاد يظفر بكتاب يجد ضالته به ككتب المقريزي، ولا سيما كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة السالف ذكره، حيث جعل المقريزي هذا الكتاب لمناقشة الأوضاع السيئة التي أردت بحياة الناس في إقليم مصر، ويعزي السبب إلى عوامل طبيعية، وأخرى سياسية، والأهم من ذلك حسب رأي المقريزي، هو ولاية الخطط السلطانية، والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة، وسرائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل»[3].

ويجعل المقريزي هذا السبب أصل الفساد الذي حلّ بالأمة

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٩.

(*) انظر ترجمته، العسقلاني، ابن حجر أحمد بن على(٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق، محمد سيد جادالحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م، ٥/٧٥.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٧٢

(٣) المقريزي؛ **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، ص٤٣.

الحياة الثقافية :

اجتمعت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحياة الثقافية في العصر المملوكي الأول، لذا ظهر إنتاج العلماء في مختلف العلوم الإنسانية، والطبيعية، وعند الحديث عن هذه العوامل، لا بد من الإيجار، وقصر الأمورعلى الأسباب التي لا يمكن تجاهلها. فمن هذه العوامل:

هجرة العلماء إلى القاهرة، العاصمة الجديدة للخلافة الإسلامية، كان لغزو التتار مدينة بغداد وتدميرها، وقتل سكانها، أثر كبير في هجرة العلماء الناجين من القتل إلى القاهرة، مما أسهم في إحياء الحركة الثقافية في القاهره، فقد أصبحت المكان الآمن الذي يصلح أن يكون ملاذاً للنشاط الأدبي، والعلمي، وذلك لأسباب كثيرة منها:

تزعُّم القاهرة لقيادة العالم الإسلامي، ومواجهة حكامها للتتر، وهزمهم، وتشجيعهم للعلم والعلماء.

ومن العلماء الذين هاجروا من المشرق الإسلامي إلى القاهرة على سبيل التمثيل لا الحصر: الخطيب القاضي جلال الدين القزويني، وسعد الدين التفتازاني، والتبريزي وغيرهم[1].

وكما حصل مع أهل المشرق، حصل مع أهل المغرب الإسلامي، فقد اضطر الفرنجة المسلمين في الأندلس إلى الهجرة، فكانت القاهرة محط أنظارهم، ومن ذلك العلماء: ابن دحية، و ابن سراقة الشاطبي، وسعيد بن موسى، وابن عصفور وغيرهم[2].

ويمكن القول إن عامل الهجرة، كان له أثر واضح في الحياة العلمية، والثقافية التي نعمت بها الدولة المملوكية، ولا يمكن الاستهانةبهذا العامل، ولكن هناك عوامل أخرى كان لها دور فاعل في هذه النهضة الثقافية.

فقد كان لتشجيع سلاطين المماليك للعلم والعلماء الدور الأكبر في نشر الثقافة،

---

(١) انظر زغلول: محمد سلام؛ **الأدب في العصر المملوكي**، الدولة الأولى (٦٤٨- ٧٨٣) منشاة المعارف ، الا سكندرية، ص١٢٤.

(٢) انظر المرجع نفسة، ص١٢٤- ١٢٥.

لذا أدرك السلاطين هذه القيمة فعملوا جاهدين على تهيئة كل الأسباب التي توفر الجو الملائم، للطالب والمدرّس على حد سواء.

فمن مظاهر هذا الاهتمام بناء المدارس، فلقد تسابق السلاطين، والأمراء ، وكبار التجار في بناء المدارس، والوقف عليها، والمصادر القديمة خير شاهد على هذا، فكان عند الانتهاء من بناء المدرسة تقام الاحتفالات بافتتاحها، حتى انتشرت المدارس في أنحاء متفرقة من البلاد الإسلامية[1].

ويروي لنا العيني (٨٥٥هـ/١٤٥١م) خبر الإنتهاء من بناء المدرسة الظاهرية في القاهرة سنة ٦٦٢هـ، فيقول: «وفي أول السنة كملت المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسن بن رزين، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين الدمياطي عبدالمؤمن بن خلف الحافظ، وكان الإجلاس بها في الخامس من صفر من هذه السنة، واجتمع بها أهل العلم، والأدب، والفقهاء، ودرّس المدرسون، واندفع الشعراء- يمتدحون»[2].

فأنشد السراج عمر الوَراق في هذا الحفل يشيد بالملك الظاهر، ويثمن له بناء هذه المدرسة التي ترنو إليها العيون من مختلف بلدان العالم أنذاك:

مليك له في العلم حبٌّ وأهله ... فلله حبٌّ ليس فيه ملامُ

فشيّدها للعلم مدرسةً غدا ... عراق إليها شيّق وشآمُ

فلا تذكرَنْ يوماً نظامية لها ... فليس يضاهي ذا النظام نظامُ

ولا تذكرَنْ ملكاً وبيبرس مالكاً ... وكلّ مليك في يديه غلامُ

---

(١) انظر عاشور: سعيد عبد الفتاح، **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٤٣.

(٢) العيني: بدر الدين محمد (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)؛ **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١ ص٣٨٢ .

وقد برزت كالروض في الحسن أنبأتْ بأنَّ يديه في النوال غمامُ[1]

وأنشد الأديب أبو الحسن الجزار في هذه المناسبة، ولكنَّ مدحه اتخذ الجانب الديني، وتحري الأجر والثواب لباني هذه المدرسة، فالملك الظاهر يشري نفسه بآخرته كونه أشاد مثل هذا الصرح العلمي:

ألا هكذا يبني المدارس مَنْ بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همةٌ بها اليوم في الدارين قد بلغ المُنَا

تجمّع فيها كل حسن مفرّقٍ فراقت قلوباً للأنام وأعينا

وقد جاوزت قبر الشهيد فنفسه النفيسة فيها في سروروفي هَنَا

وما هي إلا جنّة الخلد أُزلفت له في غدٍ فاختار تعجيلها هُنا[2]

ويخبرنا ابن كثير عن المدرسة الشيخونية التي بناها الأمير شيخون فقال:

«وهي مدرسة هائلة، جمع فيها المذاهب الأربعة، وداراً للحديث، وخانقاة للصوفية، وقف عليها كثيراً، وقرر فيها معاليم، وقراءة ودار»[3].

ومن المدارس ما بناها الأثرياء، منها المدرسة المسلّمية «هذه المدرسة بمدينة مصر في خط السيورين، أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلّم البالسي[*] الأصل، في سنة ست وسبعين وسبعمائة»[4] وخبر بناء هذه المدرسة، يقود إلى القول بوعي الطبقة غير الحاكمة بالاهتمام بالعلم وتوفير سبله للناس، وإيمانهم برسالة المثقّف في المجتمع.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٨٣.

(٢) المصدر نفسه ٣٨٣- ٣٨٤، انظر المقريزي؛ **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١ق٢، ص٥٠٤.

(٣) ابن كثير؛ **البداية والنهاية**، ٢٥٨/١٤.

(*) انظر ترجمته، العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ٢٦/٥.

(٤) المقريزي؛ أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)؛ **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية**، دار صادر بيروت، طبعة جديدة بالأوفست ٤٠١/٢.

وكانت الدروس تقدم للطلبة في غاية الاهتمام والدّقة، حتى أنّ المعلومة يتلقاها الطالب أكثر من مرة، مما يزيد في ترسيخها في ذهنه.

«وجرت العادة على تعيين معيد، أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه، ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح»[1].

وكان الطلبة ينقسمون إلى مستويات أثناء مراحل التدريس، «وكانت العادة أن يجلس الشيخ على كرسي عالٍ، ويتحلق الطلبة حوله حلقة ينقسمون فيها مراتب هي، المبتدئ والمفيد ثم المنتهي»[2].

ومن المراكز التي ساهمت في انتشار الثقافة، المساجد حيث تؤدي إلى جانب وظيفتها الدينية جوانب ثقافية، لذا كان يلقى بها الدروس المختلفة، واشتهر من تلك الدروس العلوم الدينية، وأشهر هذه المساجد المسجد الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي بأمر المُعزّ.

ومن مراكز تعليم العلوم الطبية البيمارستانات، حيث تقدم للناس العلاج، وإلى جانب هذا الدور، تدرس بها العلوم الطبية، وأشهرها البيمارستان المنصوري، حيث "لم يقتصر دوره على تقديم الرعاية الصحية والاجتماعية فحسب، بل تعدىّ ذلك إلى تدريس الطب، والاهتمام به"[3].

ومن الأمور التي أثرت الحياة العلمية اهتمام المماليك بأسواق الكتب فقد كانت هذه الأسواق عامرة بما يصل إليها من مخطوطات، مما جعلها مصدراً للعلماء الراغبين في اقتناء الكتب[4].

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح، **العصر المماليكي**، ص٤٤٣ انظر المقريزي السلوك، ج١ ق٣، ص٧٠٠/ هامش (٣)

(٢) زغلول: محمد سلام، **الأدب في العصر المملوكي**، ١/١٢٧.

(٣) الحداد: محمد حمزة اسماعيل، **السلطان المنصور قلاوون**، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط١ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٥-٥٦.

(٤) انظر : الدروبي، سمير، **ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي**، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مجلد ٤، عدد ٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص١٢٨.

ومن العوامل التي أسهمت في رفع سوية التعليم والثقافة لعصر المماليك، تقدير سلاطين المماليك للعلماء، ورفع شأنهم، وتميزهم في التعامل عن بقية المجتمع، فهذا الاحترام والتبجيل- سواء أكان دافعه حبّ العلم أم التظاهر به- قد أعطى ثماره، فمن أشكال احترام السلاطين للعلماء، ما يرويه الصفدي في حق ابن سيد الناس، «كان الأمير علم الدين الدواداري يحبه ويلازمه كثيراً، ويقضي أشغال الناس عنده، ودخل به إلى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، وقد امتدحه بقصيدة، وقال: أحضرت لك هذا، وهو كبير من أهل العلم، فلم يدعه السلطان يبوس الأرض، وأجلسه معه على الطراحة»[1].

وفي رواية لابن تغري بردي «أهل العلم منزهون عن هذا، وأجلسه عنده»[2] فقد عافاه السلطان مما كان يصنعه الأمراء وخاصته من الوزراء، وهو تقبيل الأرض من بين يديه.

ومما يؤكّد ما سلف من احترام السلاطين للعلماء والقضاة، ما حدث للقاضي ابن بنت الأعز، فقد حضر إليه الملك الظاهر بيبرس في دار العدل، لكي يتحاكم مع أحد الأمراء في بئر، فلما وصل السلطان وقف الناس إلا القاضي؛ فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام[3].

وشبيه بهذه الحوادث، ما كان يفعله السلطان لاجين مع القاضي ابن دقيق العيد، فقد كان يجلّه ويحترمه، حتى بلغ به الحال إلى تقبيل يده، وهذا ما يرويه العسقلاني

---

(١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق علي أبي زيد وآخرين، دار الفكر دمشق- سوريا، ط١، ١٩٩٨م ٥/٢٠٧.

(٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)؛ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م، ٨/١٠٨٠.

(٣) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ/١٥٠٥م) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، وشركاه، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ٢/٩٥.

بقوله: «كان السلطان لاجين ينزل عن سريره ويقبل يده»[1].

ولم يقتصر دور بناء المدارس على السلاطين، والأمراء وكبار التجار، بل تعداه إلى المرأة التي أسهمت إسهامات عظيمة في هذا المجال، فقد عُرِف في هذ العصر الدور المميز لبعض النساء اللواتي أرخى لهن الزمان برده، وعادةً ما يكنّ ذات علاقة بالسلطنة، فإما أن تكون بنتاً للسلطان، أو زوجة له، أو أماً، أو أختاً، وهلمّ جرا.

وللتدليل على ذلك المدرسة الحجازية التي أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية، فقد رتبت في هذه المدرسة درساً للشافعية، ودرساً لفقهاء المالكية، وقد أوقفت إلى جانب المدرسة مكتباً للسبيل فيه عدة أيتام، رتبت لهم مؤدباً، وأجرت لهم في كل يوم لكل واحد منهم خمسة أرغفة من الخبز النقي، ومبلغاً من الفلوس، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف[2].

وشبيه بحالها، المرأة الست الجليلة بركة أم السلطان، فقد أنشأت مدرسة وعملت بها درساً للشافعية، ودرساً للحنفية، ووقفت على بابها حوض ماء للسبيل[3].

ولم يكن دورها مقتصراً على بناء المدارس، بل شاركت في التدريس، ومنح الإجازات للطلبة، فهذه فاطمة بنت محمد بن جميل بن حمد تجيز الصفدي بدمشق سنة سبعمائة وتسع وعشرين[4].

ومن السنن الحميدة في ذلك العصر التي أثرت الجو العلمي والأدبي، سنة تقريض المصنفات والقصائد، "فقد جرت العادة أنه إذا صُنِّف في فن من الفنون، أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها، أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه، أو قصيدته بالتقريض، والمدح، ويأتي كلّ منهم بما وسعه من البلاغة في

---

(١) العسقلاني، الدرر الكامنة، ٢١٢/٤.

(٢) المقريزي، احمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)؛ **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية**، طبعة جديدة بالأفرست، دار صادر- بيروت ٣٨٢/٢.

(٣) المصدر نفسه ٣٩٩/٢-٤٠٠.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٢٩/٤.

ذلك»[1].

وفي هذه الإشادة حفزٌ له على الإبداع، وإثراء للحركة الأدبية، والعلمية.

ونتيجة لكثرة المرافق التعليمية، زاد عدد الطلبة، وأدى هذا الأمر إلى الحاجة لتنظيم رتب المتعلمين، ومنحهم الشهادات التي تشبه إلى حد كبير الدرجات العلمية في الوقت الحاضر، وكانت تسمى الإجازات.

وقد تنوعت هذه الإجازات، فكان هناك إجازات بالفتيا والتدريس، ويقول القلقشندي: «وجرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك»[2].

وهناك نوع آخر من الإجازات وهو إجازة عرض الكتب والمصنفات "فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً، ومواضع، ويستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف، أو تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع، على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك من عُرِض عليه»[3].

مهما يكن من أمر فإن هذه الإجازات تشكل محوراً أساسياً في تنظيم الحركة العلمية، وتُسهم كذلك في إثراء هذه الحركة، كونها تعزز ثقة المتعلِّم بقدرته على الإفتاء والتدريس، وعرض الكتب والمصنفات والروايات، مما يدفعه إلى التدرج في مراحل هذه الإجازات، حيث لكل إجازة مرحلة تعليمية خاصة.

ومن المؤشرات التي تدفع الباحث إلى الزعم بسعة الحركة العلمية في عصر

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ٣٦٤/١٤.

(٣) المصدر نفسه، ٣٦٩/١٤.

المماليك، كثرة المؤلفات المختلفة، ويقول محمود رزق سليم: «وهذه الحركة هي أهم نتائج النشاط العلمي»[1] ويضيف قائلاً: « إذ هي الثمرة الخالدة والأثر الباقي والوصلة الصالحة بين الماضي والحاضر»[2] فقد تنوعت هذه المصنفات الناتجة عن هذا النشاط العلمي والأدبي، ولا مكان في هذه العجالة لبسط تلك المؤلفات، بل يكفي التمثيل لبعضها، فمن المصنفات التاريخية كتب المقريزي: خططه وسلوكه، ومن كتب التراجم: الوافي بالوفيات وأعيان العصر للصفدي.

واشتهر في هذا العصر التأليف في الكتب الدينية، وخاصة السيرة، وكتب المذاهب الأربعة، والقراءات، وقد تنوعت هذه المؤلفات بين كتب تراجم الأعلام، وكتب السيرة النبوية، وكتب تاريخ المدن والأمصار، وكتب التاريخ العام، وكتب السير وتاريخ الخطط والآثار[3].

وأمتاز هذا العصر عن غيره بالموسوعات العامة التي حشد فيها مؤلفوها من مختلف العلوم، كالنويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، والعمري في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وغيرهم كثر سادوا في هذا المجال، والموسوعات الخاصة بعلم أو فن معين مثل صبح الأعشى للقلقشندي المتعلقة بفن الإنشاء، والمزهر للسيوطي المتعلقة بعلم اللغة...

---

(١) سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية ق١/ج٢، ص٨٩.

(٢) المرجع نفسه، ق١/ج٢، ص٨٩.

(٣) انظر المرجع نفسه، ق١/ج٢، ص٩٠- ١٧٤.

الحياة السياسية:-

لا بدّ من حديث موجز عن آخر عهد الأيوبيين، الذي مُهِّد فيه لظهور دولة المماليك البحرية في مصر في ذلك الوقت، ففي السنة التي توفي فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩هـ «كان قد قسمّ البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الكرك، والشوبك وبلاد جعبر، وبلدان كثيرة قاطع الفرات، وحماة ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين بن محمد أسد الدين شيركوه الكبير نجم الدين أخي أبيه. واليمن بمعالقه ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين، وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظاهر ابن الناصر»[1].

وتُعدّ السنة التي اقتسم المُلْك فيها هؤلاء السلاطين بداية ضعف دولة بني أيوب، ويوضح ذلك ابن كثير بقوله "ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب، وتختلف في جميع هذه الممالك، حتى آل الآمر واستقرت الممالك، واجتمعت الكلمة على العادل أبي بكر صلاح الدين»[2].

ولقد دبّ الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي حتى أنه استعان بعضهم بالفرنجة على أخيه لاستلام الملك منه، إلى أن وصل الحكم إلى آخر سلاطين الأيوبيين في مصر توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وأثناء وصول توران شاه إلى مصر[1]، كان المماليك في كرّ وفرّ مع الصليبيين،

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٧/١٣.

(٢) المصدر نفسه، ٧/١٣.

واستطاع المماليك أن يحققوا انتصارات عليهم، وبدل أن يكافئ المماليك على حسن صنيعهم، قلب لهم ظهر المجن، "وسيطر عليه شعور بأن المماليك يزاحمونه الحكم، ويقاسمونه سلطانه، ولم يلبث أن أضمر توران شاه للمماليك البحرية أمراً»[٢].

ولم يكن توران شاه رجل سياسة كما تصفه بعض المصادر، بل كان فيه طيش، وخفّة، ونكران جميل «غير أنه بدت منه أسباب نفّرت القلوب عنه، فاتفقوا على قتله وكان فيه نوع خفّة»[٣].

ويظهر نكرانه للجميل في تهديده لزوجة أبيه عندما توعدها إذا لم تمكنه من الأموال والجواهر «فخافت منه فكاتبت فيه فاتفق الجميع عند ذلك على قتله»[٤].

وبمقتل توران شاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر، واستلم زمام الأمر المماليك الذين اجتمعوا، وسودوا عليهم- أرملة سيدهم السلطان نجم الدين أيوب- شجرة الدر.

وتصف المصادر هذه المرأة، بأنها ذات حسن، وتدبير وحزم، فيقول ابن تغري بردي: «واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها، وغزير عقلها، وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيبك التركماني أتابكاً لها، وخُطِب لها على المنابر بمصر، والقاهرة»[٥].

وفي تاريخ ابن خلدون "ونصّبوا للملك شجرة الدر أم خليل، وخطب لها على المنابر، ونُقِش اسمها على السكّة، ووضعت علاماتها على المراسم، ونصّها أم خليل"[٦].

---

(١) أنظر عاشور، سعيد عبد الفتاح، **العصر المماليكي في مصر والشام**، ص٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٩.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ٦/٣٧١.

(٤) المصدر نفسه ص٣٧١، أنظر المقريزي: **السلوك**، ج١/ق٢ ٣٥٩.

(٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ٦/٣٧٣. أنظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٣/٢١٢ .

(٦) ابن خلدون؛ عبد الرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) **تاريخ ابن خلدون**، ضبط خليل شحاده، دار الفكر، ٥/ ٤٣٠.

وثارت ثائرة سلاطين الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل توران شاه، وتولية شجرة الدّرّ مكانه، وفي بغداد عاب الخليفة المستعصم على الأمراء موقفهم، وأرسل لهم كتاباً جاء فيه "إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم، فاعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً"[1].

الحكم المملوكي:

كان زواج عز الدين أيبك من شجرة الدر بداية التدخل الواضح في الحكم من قبل المماليك "ولم يكن أيبك أكبر المماليك سناً، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس، مما جعل بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن يتهمه بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا، وكذلك يرى بعض المستشرقين مثل بلوشه أن أيبك كان يحكم بصفته زوج الملكة"[2].

واستطاع أيبك أن يوطد أركان حكمه، ويظهر بصورة السلطان الحازم، وبقي على كرسيّه إلى أن "تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجرة الدّرّ، فعزم على قتلها"[3] وكانت نهايته أن أعدّت له خمسة ليقتلوه، وأشيع أن المعز مات فجأة في الليل، فلم تصدق مماليكه بذلك[4].

وبعد مقتل الملك المعز، تولى الحكم ابنه علي بن المعز، فنقل شجرة الدّرّ إلى أمّه "فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت، وألقوها من سور القلعة إلى

---

(١) المقريزي: السلوك ج١ ق٢، ص٣٦٨.

(٢) عبد الدايم، عبد العزيز محمود؛ **مصر في عصري المليك والعثمانين**، مكتبة نهضة الشرق. جامعة القاهرة ١٩٩٦م، ص٤٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص٤٠١.

(٤) المصدر نفسة، ج١ ق٢، ص٤٠٣.

الخندق، وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياما»[1].

ويرى سعيد عبد الفتاح عاشور أن المماليك لم يؤمنوا بنظام الوراثة للعرش، بل يرى «ما يحدث عادة عند وفاة سلطان من السلاطين المماليك، هو أن يجتمع كبار الأمراء، ويعيّنوا ابن السلطان المتوفى في منصب السلطنة، بدلاً من أبيه لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثة، ولكن كحلٍّ مؤقت إلى أن ينجلي الموقف بين الأمراء، ويظهر الأمير القوي الذي يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الأمراء، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل»[2].

وكان الملك المنصور علي بن عز الدين غير مدبر للأمور، فزاد غضب الناس عليه، وذلك «لكثرة لعبه بالحمام، ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالحجارة، وركوبه الحمير الغرّة في القلعة، ومناطحته الكباش»[3].

وفي فترة حكمه تعرّضت البلاد لأكبر محنة، ألا وهي غارات التتار على مشرق العالم العربي بغداد، وأحسّ أهل مصر ولا سيما الأمراء بالخطر، وشعروا بأن الملك لا يستطيع تدبير الأمور، فاستأثر قطز بالسلطنة، وقبض على المنصور، وأفراد أسرته وأودعهم السجن.

ومن الأعمال التي تحمد للسلطان قطز معركة عين جالوت التي وقعت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م التي أعادت للعالم الإسلامي هيبته، وجرّعت العدو شرّ هزيمة، منذ خروجه من دياره.

ولا يفوتنا أن نذكر جانباً من الحياة السياسية في بلاد العراق والشام، إثر هجوم

---

(١) المصدر السابق، ج١ ق٢، ٤٠٤.

(٢) عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام**، ص٢٣.

(٣) الحنبلي: عبد الحي بن العماد الحنبلي؛ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، طبعة جديدة دار إحياء التراث العربي بيروت، بلا تاريخ ٢٧١/٥.

التتار على بغداد، وقتل الخليفة المستعصم، وتعليق السيوف في رقاب العامة والخاصة، فأكثر الشعراء من المراثي في دار الخلافة، التي أصبحت موحشة الطلل، وعمّ خرابها، فتمثّل بعضهم بقول سبط التعاويذي[1]:

بادت وأ هلوها معاً فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خرابُ

وقال بعضهم[2]:

يا عُصبة الإسلام نوحي واندبي حزناً على ما تمَّ للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وقال تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر[3]:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا فما بذاك الحمى والدار ديّارُ

تاج الخلافة والربع الذي شرفت به المعالم قد عفّاه أقفار

وسجّل الشعراء ما حلّ ببغداد من خراب وتدمير، وسبي للنساء، وذهاب لسلطانهم، وتمنى بعضهم لو أنّه لم يكن معاصراً لتلك النازلة، بل يثوي تحت الثرى، فهذا الشاعر الفارسي المسلم سعدي الشيرازي يقول[4]:

نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيتُ لو كانت تمرّ على قبري

بكت جدر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوي الحجر

---

(١) المصدر السابق، ٥/٢٧١.

(٢) المصدر نفسه، ٥/٢٧١.

(٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة** ٧/٥١.

(٤) جرار، مأمون فريز، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، مكتبة الأقصى، عمان- الأردن، ط١/١٩٨٣، ص٥٦-٥٧.

وقفت بعبادان أرقب دجـلة كمثل دمٍ كان يسيل إلى البحـر

أيذكر في أعلى المنابر خطبة ومستعصم بالله لم يك في الذكر

ومن سلاطين المماليك السلطان الظاهر بيبرس، وقد اشتهر هذا السلطان بانتصاراته المتوالية على التتار، حتى وصل إلى مشارف الفرات في مطاردة التتار، وقد مدحه الشعراء بقصائد عدة، فهذا الشاعر يوسف المهمندار يصور انتصار المسلمين بقيادة بيبرس، وهم يخوضون نهر الفرات بخيلهم[1]:

لو عاينت عيناك يوم نزالـنا والخيل تطفح في العجاج الأكدر

وسنا الأسنة والضياء من الظبا كـشفا لأعيـننا قتـام العـثير

حتى سبقنا أسهماً طاشت لنا منهـم إليـنا بالخـيول الضّـمّر

لم يفتحوا للرمي منهم أعيناً حتى كُحلن بكـل لُـدنٍ أسمر

ومن الجدير ذكره أن الظاهر بيبرس، وصل الفرات، وعسكر بجيشه وشارك في المعارك بنفسه[2].

وللملك الظاهر إسهامات كثيرة منها نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة، فقد بايع السلطان بيبرس المستنصر بالله خليفةً، وتابعه الأمراء وعامة الناس، ونقش اسمه على السكة، وخُطِب له على المنابر[3]، وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م.

ومن آثاره الحميدة، بناء المدارس، فيذكر ابن كثير اكتمال المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، في سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م وقد أراد الظاهر أن يعمّ الأمن، والطمأنينة نفوس العامة، لذا «عمّر الظاهر بالقدس خاناً، ووقف عليه أوقافاً للنازلين به من إصلاح

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٦٤٠

(٢) انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٣/ ٢٧٨.

(٣) انظر ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤م، ٨/ ٧٣.

نعالهم، وأكلهم وغير ذلك وبنى به طاحوناً وفرناً»[1].

ومن سلاطينهم، سلامش بن الملك الظاهر، ولم تبلغ مدة حكمه العام، حتى اجتمع الأمراء وبايعوا الملك المنصور قلاوون الصالحي[2].

«واستمر قلاوون في السلطنة، فكانت له مشاهد حسنة، وفتوحات منها طرابلس، وقد كانت في أيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة وإلى الآن، وهو الذي أحدث وظيفة كتابة السر، وأحدث اللعب بالرمح أيام إدارة المحمل[*]، وكسوة الكعبة، وغيّر ملابس الدولة عما كانوا عليه في دولة بني أيوب»[3].

ومن الملاحظ على أن هذه الأسرة، استطاعت أن تحافظ على عرش الدولة المملوكية ردحاً من الزمان، سوى بعض الاختراقات الطفيفة، التي أحدثها كتبغا المنصوري، وحسام الدين لاجين، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، ومن الطريف أن هؤلاء جميعاً، هم من مماليك المنصور قلاوون.

وخلفه في الحكم ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، واستمر في الحكم إلى أن قتل في قرية بتروجة في مصر، فهبّ ابن حبيب يرثيه[4]:

تباً لأقـــوامٍ لمالـــك رقّهم　　قتـــلوا وما رقّوا لحالة مُتَرفِ

وافوه غدراً ثم صالوا جولةً　　بالمشرفيّ على المليك الأشرفِ

وبعد مقتل الملك الأشرف، خلفه أخوه الملك الناصر محمد أبو الفتوح، وانتهى

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٣/ ٢٥٦.

(٢) انظر المصدر نفسه، ١٣/٣٠٥.

(*) عبارة عن محفة شبه الهودج ذات قمة هرمية كسيت بثوب مزخرف يصحب ركب الحاج إلى مكة: ابن بطوطة: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة**، تحقيق عبدالهادي التازي: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج١، حاشية ١٥٧، ص٢٢١.

(٣) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ٢/ ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ١١٢.

به الأمر في المرة الأولى أن خُلع، (وتسلطن زين الدين كتبغا المنصوري)[1]، وعندما قتل الأخير، أعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون كرة ثانية، إلى أن ترك السلطنة عندما أراد الخروج إلى الديار المقدسة حاجّاً[2]، عند ذلك تسلطن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، واستطاع الملك الناصر محمد أن يعيد ملكه للمرة الثالثة، وقتل ركن الدين بيبرس، فنظم الشعراء المدائح في هذه المناسبة، فقال العلاء الوداعي في عود الناصر إلى ملكه[3]:

الملك الناصر قد أقبلت ... دولته مشرقةَ الشمس

عاد إلى كرسيّه مثل ما ... عاد سليمان إلى الكرسي

وقال الصلاح الصفدي[4]:

تثنّى عطف مصر حين وافى ... قدوم الناصر الملك الخبيرِ

فذلّ الجشنكير بلا لقاءٍ ... وأمسى وهو ذو جاش نكيرِ

إذا لم تعضد الأقدار شخصاً ... فأوّل ما يراع من النّصيرِ

واستمر الملك يسوسه بنو قلاوون ونوجزهم في[5]:

المنصور أبو بكر ٧٤١- ٧٤٢هـ، الأشرف كجك ٧٤٢هـ، الناصر أحمد ٧٤٢هـ، الصالح عماد الدين إسماعيل ٧٤٣- ٧٤٦هـ، الكامل شعبان ٧٤٦- ٧٤٧هـ، المظفر حاجي ٧٤٧- ٧٤٨هـ، الملك الناصر ٧٤٨-٧٥٢هـ، الملك الناصح صالح ٧٥٢-٧٥٥هـ الناصر حسن (ثانية) ٧٥٥- ٧٦٢هـ، الملك المنصور ٧٦٢- ٧٦٤هـ، الأشرف ٧٦٢-٧٦٨هـ.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٢.

(٢) انظر المصدر نفسه ٢/ ١١٢.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١١٤.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١١٤:

(٥) انظر المصدر نفسه، ٢/ ١١٦-١١٨.

الفصل الأول

صلاح الدين الصفدي كاتباً

اسمه :-

اسمه :- خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين الصفدي[1] وفي بعض الروايات بزيادة الشافعي[2]، وبعض الروايات تقول خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي[3].

ومن القراءة الأولى لكتب القدماء، لم يلحظ أيّ اختلاف في اسم الصفدي، فقد أجمع القدماء، والمحدثون على تسميته بخليل، ولعل هذا راجعٌ إلى شهرته العلمية ،

---

(١) العسقلاني: **الدّرر الكامنة**، ٢/ ١٧٦، المقريزي: أحمد بن علي (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) **كتاب المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٤١هـ/ ١٩٩١م، ج٣ ٧٦٧، ابن الغزي: **ديوان الإسلام**، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت، (٣/ ١٩٩). الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) **ذيول العبر في أخبار من غبر** ، تحقيق أبي هاجر السعيدين بسيوني. زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٠٤٥هـ/ ١٩٨٧م ٤/ ٢٠٣، السبكي: تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبد الكافي (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) ، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ج١٠/ ٥. الشوكاني: محمد بن علي (١٢٥٩هـ/ ١٨٣٥م)، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج١، ٢٤٣. زيدان: جرجي، **تاريخ آداب العربية**، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣، ج٣/ ١٧٠، خير الدين الزركلي: **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ج٢، ص٣١٦، عبدالحي الكتاني، **فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٧١١، البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٥/ ٣٥١.

ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤/ ٣١٨. فروخ: عمر، **تاريخ الأدب العربي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٩، ط٢، ١٩٨٤، ٣/ ٧٨٩/ ٧٩٤. الشنتناوي، أحمد ، **دائرة المعارف الإسلامية**، ١٤/ ٢١٩. عباس، إحسان: **صلاح الدين الصفدي**، مجلة العربي، عدد ١٦، رمضان ١٣٧٩هـ، مارس ١٩٦٠م.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦/ ٢٠٠.

ابن حبيب، الحسين بن عمر (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق محمد محمد أمين، وسعيد عبدالفتاح عاشور الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ج٣، ص٣٦٨.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج١/ ق٢/ ص٧.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/ ١٩، انظر: الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، تحقيق محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص٨.

ومكانته المرموقة، وكثرة صداقاته مع أقرانه، كما أن هناك عاملاً آخر يساعد على حفظ الاسم، ألا وهو كونهم يترجمون لحياة الأعلام قبل موتهم، وكتاب أعيان العصر يشهد بذلك.

على أن أغلب من ترجموا للصفدي في مؤلفاتهم كانوا من شيوخه[1]، أو تلاميذه[2]، أو من أصدقائه[3]، وهذه الميزة تضفي على ترجمته كثيراً من الدقة والأهمية، وهذا كذلك يفيد الباحث في تحديد سنة ولادته، وسنة وفاته، وبعض خصوصياته التي يصعب على الباحث تحديدها بالنظر إلى مؤلفاته.

ألقابه:

حظي الصفدي باهتمام معاصريه، ونال شهرةً بين شيوخه، وتلاميذه، لذا فقد لقب بألقاب عديدة، حيث كانت الألقاب في عصره مدار اهتمام الجميع، فلذا جمع الصفدي بين ألقاب أرباب السيوف والقلم، فمن هذه الألقاب: الإمام[4]: «وهو من ألقاب الخلفاء كما يقال في المكاتبات عنهم من عبد الله ووليه الإمام الفلاني»[5].

وقد لقب صلاح الدين الصفدي بالبارع[6] "وهو من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فاعل من البراعة، وهي النهضة بالشيء والتقدم فيه، والبارع نسبة إليه للمبالغة"[7] وهذا اللقب مطابق للصفدي كونه "أجلّ كاتب تخضع لطرسه مهارق السحائب وتخشع لقلمه سيف البرق المسنون»[8].

---

(١) الذهبي، **ذيول العبر**، ٤/٢٠٣.
(٢) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٥.
(٣) المصدر نفسه، ١٠/٥.
(٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩،
(٥) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/٨.
(٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩.
(٧) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/٩.
(٨) ابن فضل الله، شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، يصدره فؤاد سزكين، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ١٢/٣٧١.

ومن ألقابه المولى[1] «وهو من ألقاب الكتاب، وأكثر ما يجري ذلك في تعيين كاتب السّر ونحوه، فيقال: المولى فلان الدين، والمراد هنا السيد، والمولوي نسبة إلية للمبالغة، وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف والأقلام»[2] وهذا يدل علي المكانه العالية التي حصّلها الصفدي.

ومن الألقاب التي أطلقت على الصفدي، الشيخ[3]« وهو من الألقاب التي تطلق على العلماء، والصلحاء، وأصله في اللغة الطاعن في السن، ولقب به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقّر الشيخ الكبير نسبة إليه للمبالغة»[4].

ومن ألقابه العالم[5] "وهو من ألقاب السلطان، ويعني خلاف الجاهل، وهو في الحقيقة من ألقاب العلماء، ومن الألقاب المشتركة في الإصطلاح بين أرباب السيوف، والأقلام، ولكن المختص به هو صاحب العلم[6]" والصفدي حريّ بأن يلقب بذلك لغزارة إنتاجه المتعدد في الأدب والتاريخ والتراجم.

وقد لقب الصفدي بالبليغ[7] «وهو من ألقاب أرباب الأقلام، وأحسن ما يقع في ألقاب ذوي البلاغة من الكتاب، ونحوهم وهو فعيل من البلاغة، وهي تأدية كنه المراد بإيجازٍ لا يخلّ وإطناب لا يُملّ»[8] وهذا اللقب لا غرابة أن يطلق على الصفدي نظراً لكثرة مؤلفاته البلاغية والنقدية.

وقد أطلق عليه كثير من الألقاب مثل: المفتن[9]، والأديب[10] (والقاضي،

---

(١) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/٢٦٨.
(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/٣١.
(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩.
(٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/١٧.
(٥) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٦.
(٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/٢٠.
(٧) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٧.
(٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٦/٩.
(٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩.
(١٠) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٥.

والعلاّمة، وحامل راية الدراية، ولسان العرب وحجة الأدب)[1] (ومالك أزمة الأدب، وجامع شتات الفضايل، وشيخ الأدباء، وأوحد العرب العرباء، وجمال المحدثين)[2].

ويصعب إحصاء ألقابه جميعاً نظراً لكثرتها، وتناثرها في المصادر القديمة، والذي يهمنا من هذه الألقاب لقبه الذي عُرِف به، وهو صلاح الدين «وهذا اللقب من ألقاب القضاة والعلماء، فقد كان في الزمن الأول لغالب أسمائهم ألقاب لا يتعدونها، كقولهم في محمد "شمس الدين" وفي أحمد «صلاح الدين»[3]، على أنَّ بعض الدارسين قد أشار إليه بالصلاح[4] الصفدي طلباً للاختصار[5].

كنيته:-

عرف للصلاح الصفدي كنية واحدة، تناقلتها كتب التراجم، وهي "أبو الصفاء" علماً بأنَّ صلاح الدين الصفدي لم يعرف له ولدٌ بهذا الاسم، وقد كانت الكنى من عادة الناس حتى لو لم يكن للمرء أبناء، ويقول القلقشندي: «اعلم أن الأولين أكثر ما كانوا يعظمون بعضهم بعضاً في المخاطبات، ونحوها بالكنى»[6] وقال النووي: وكان من الصحابة رضوان الله عليهم جماعات لهم كنىً قبل أن يولد لهم، كأبي هريرة، وخلائق لا يحصون من التابعين ممن بعدهم، قال: ولا كراهة فيه بل هو محبوب بشرطه»[7].

فأبو الصفاء بالألف الممدودة، وردت عند معظم المترجمين لحياته، وقد تبعهم

---

(١) صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) ، **كتاب الوافي بالوفيات**، اعتناء هلموت ريتر، بفيسبادن، ط٢، ١٣٨١هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص.ج (المقدمة).

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص د (المقدمة).

(٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٥/ ٤٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ٦/ ١٢٧، انظر : فروخ، عمر، **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٧٨٩.

(٥) أبو بشير، بسام علي ، **صلاح الدين الصفدي**، حياته، وآثاره، أطروحة لنيل درجة الدكتوراة ١٤١٥/ ١٩٩٥، جامعة الجزائر، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ص٢٨.

(٦) القلشندي، **صبح الأعشى**، ٥/ ٤٠٦.

(٧) المصدر نفسه، ٥/ ٤٠٩.

المحدثون في مد ألف كنيته[1]، على أنَّ بعض المتقدمين[2] اكتفوا بالألف القائمة، ولعل ذلك من التصحيف.

ولادته ونشأته:

ولد صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في مدينة صفد[*] بفلسطين، سنة ست وتسعين وستمائة للهجرة[3]، وأورد بعض المؤرخين لولادته تاريخاً آخر، وهو سنة سبع وتسعين وستمائة للهجرة[4]، وهذا أمر طبيعي، فتاريخ الولادة قد يختلف فيه كون المولود لا يشكّل في ذهن المؤرخ أمراً، إلا بعد أن يسطع نجمه، فمن المؤرخين من جعل سنة ولادته بين عامي ٦٩٦/٦٩٧هـ[5].

ويمكن ترجيح سنة ست وتسعين وستمائة تاريخاً لولادته لأمرين:- أولهما رواية ابن حبيب في تذكرة النبيه حيث يقول: «مولد المولى صلاح الدين الصفدي سنة ست وتسعين وستمائة كذا وجدته بخطّه»[6]، وثانيهما رواية السبكي في طبقات الشافعية الكبرى حيث يقول «ولد سنة ست وتسعين وستمائة»[7] حيث كان السبكي صديقه «وكانت بيني وبينه صداقة منذ كنت صغيراً»[8].

---

(١) من هؤلاء العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/ ١٧٦، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/ ١٩، المقريزي، **كتاب المقفى الكبير**، ٣/ ٧٦٧.

(٢) من هؤلاء ابن فضل الله، **مسالك الأبصار**، ١٢/ ٣٧٠. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/ ٢٦٨. ابن العماد، شذرات الذهب، ٦/ ٢٠٠.

(*) «كانت صفد مركز إقليم واسع الأطراف في القرن الثامن ولها نائب من أكابر الأمراء المقدمين وتتبعها إحدى عشرة ولاية» عباس؛ إحسان: **مجلة العربي**، ع١٦/ ١٩٦٠م، ص١١١.

(٣) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/ ٥. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/ ٢٧١. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/ ١٩. البغدادي، **هدية العارفين**، ٥/ ٣٥١.

(٤) الشوكاني، **البدر الطالع**، ١/ ٢٤٣.

(٥) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/ ١٧٦. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٦/ ٢٠٠.

(٦) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/ ٢٧١.

(٧) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/ ٥.

(٨) المصدر نفسه، ١٠/ ٥.

ولم يورد ابن فضل الله العمري تاريخاً لولادته بل اكتفى بذكر خلاله الحميدة، وصداقته الحميمة له.

وقدّم المقريزي تاريخاً لولادته في كتابه المقفى الكبير، إلا أنّ هذا التاريخ يمكن استبعاده فيقول "ولد سنة تسعين وستمائة»[1] ولم أجد تاريخاً يعضد هذه الرواية ولعل ذلك سببه السقط.

ومهما يكن من أمرٍ فإن الصفدي نشأ في كنف والده نشأة أبناء الأمراء، فقد وفّر له الجو الملائم، فحفظ القرآن صغيراً[2]، واتقن العربية، ولم يدعه والده يبتعد عنه لطلب العلم، أو العمل في بداية أمره، بل كفاه ذلك بالتتلمذ على شيوخ صفد، من أمثال نجم الدين الصفدي (٧٢٣هـ/١٣٢٣م)[3].

وكان الصفدي رسّاماً، والرسم في ذلك العصر كان على القماش، وكان فنّاً راقياً في صفد، فأتقنهاومهر فيها[4]، ولم يكن هذا الأمر مقنعاً للصفدي، بل كان طموحه أكبر من هذا، لا بل كان يتجاوز حدود صفد، فبعد أن تجاوز العشرين من عمره، ارتحل في طلب العلم بين حواضر الثقافة في عصره، فكانت القاهرة ودمشق محطّ نظره، فالتقى الصفدي بجل علماء هاتين المدينتين، بل تعدى ذلك إلى حلب والرحبة، ونشأت بينه وبين علماء عصره، وأدبائه مكاتبات ومراسلات، كالحافظ أبي الفتح بن سيد الناس، والبارع جمال الدين بن نباتة، والشيخ زين الدين عمر بن الوردي، وأبي عبد الله المعري وغيرهم[5].

ولم يجد الصفدي بُدّاً من أن ينتظم في سلك الوظيفة، فآثر الوظائف الكتابية التي

---

(١) المقريزي: **المقفى الكبير**، ٣/٧٦٧.

(٢) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٥/٢٤٢.

(٣) الدروبي، سمير، « **مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق**»، مجلة البلقاء، ع٣، مجلد١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٧٩.

(٤) عباس، إحسان، **صلاح الدين الصفدي**، مجلة العربي، ص١١١.

(٥) انظر: ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٥/٢٤٢-٢٤٣.

تنمّي موهبته، فكانت له كتابة الدرج بصفد، ثم القاهرة، وبعدها إلى الرحبة وحلب، ودمشق، ويقول صديقه تاج الدين السبكي: «وكنت قد ساعدته آخر عمره فولي كتابه الدست بدمشق، ثم ساعدته فولي كتابة السر بحلب، ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال، وكتابة الدّست»[1].

وفي آخر أيامه تصدى للإفادة بالجامع الأموي بعد أن ثقل سمعه[2].

أما عن أسرة الصفدي، فلم تسعفنا المصادر التي بين الأيدي في التعرف إليهم سوى بعض العبارات التي توحي بوجود تلك الأسرة من مثل: وقلت أيضاً أتشوق إلى ولدي[3]:

أيا ولـدي وأفـاني البينُ بغتةً ... وبدّد شـملاً قد تنـظّم كالعقد

فسرتُ وما أعددتُ عنك تجلّداً ... لقلبي ولا حدثت نفسي بالبعد

وكذلك، فقلت أنا أذكر أولادي[4]:

أخرجني المقدور من جلّق ... عن طيب جنات جنيّات

فإن أعد يوماً لـها سـالماً ... فـهـو بنـيّات بُـنيّـات

ومن الإشارات كذلك:- قال السبكي: كتب إليّ مرةً وقد ولد له ولد يدعوني إلى حضور عقيقته[5]:

عبدك هذا الجديدُ أضـحى ... يقول ما سمع له طريقه

يا جوهراً في الزّمان فرداً ... ماضرّ أن تحـضر العقيقة

وقد ذكر الصفدي أنَّ له ولدين فقال "وسمع ذلك أجمع ولداي أبو عبد الله

---

(١) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٥-٦.

(٢) انظر: العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٦.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٤٧١.

(٤) المصدر نفسه، ١/٤٧١-٤٧٢.

(٥) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٧.

محمد وأخوه شقيقه أبو بكر محمد»[1] وقد عاد الصفدي في موضع آخر، ونصّ على أن له ولداً اسمه محمد أبو عبد الله فقال: «وسمعت عليه أنا وولدي محمد أبو عبد الله جزء ابن عرفة»[2].

ونصّ الصفدي كذلك على أن له بنتاً اسمها فاطمة فقال: «وسمع ذلك كاملاً ولداي المحمدان وفاطمة»[3].

ثقافته:

كان الصفدي واسع المعرفة، كثير الرحلة في طلب العلم، «شارك في الفضايل، وساد في الرسائل، وقرأ الحديث، وجمع وصنّف، وله تواليف وكتب وبلاغة»[4]، ويصفه صديقه السبكي بقوله: «برع في الأدب نظماً، ونثراً، وكتابة، وجمعاً، وعني بالحديث»[5].

وجاء في النجوم الزاهرة قول ابن تغري بردى «كان إماماً، بارعاً، كاتباً، ناظماً، ناثراً، شاعراً»[6].

ويذكر الصفدي عن نفسه أن أباه لم يمكنه من طلب العلم قبل سن العشرين، وهذا يفهم من عبارة العسقلاني في الدّرر الكامنة، حيث قال: «وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة، فطلب بنفسه»[7] وعبارة طلب بنفسه توحي باهتمام الصفدي بضرورة الرحلة في طلب العلم، لا سيّما وإنّ لديه هواية الرسم

---

(١) الصفدي، **الوافي**، ١/ص ج (المقدمة).
(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٣٩٣.
(٣) الصفدي، **الوافي**، ١/٥٥.
(٤) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٧.
(٥) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٥.
(٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩.
(٧) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٦.

والخط، فقد كتب الخط الجيد، وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها[1].

وتظهر ثقافة الصفدي جليةً من خلال العلوم المختلفة التي ألف فيها، فقد ألف في التراجم، وفنون الأدب، والبلاغة والنقد، واللغة، ومؤلفاته المنشورة والمخطوطة تشهد له بذلك.

وكانت ثقافته موسوعية، تجمع بين الجدّ والهزل «وتدل كتبه على سعة مداركه واتساع آفاقه»[2] ويقول ابن فضل الله العمري «ولا حمل الوجود حفياً شبهه بين جنبيه، فهو محدث يحدث بالصحيح وتروى عنه العجائب والمعروف وكلّه غرائب»[3].

فهو واسع الثقافة في مألوفها وغريبها وعجيبها «وهو أجل كاتب تخضع لطرسه مهارق السحائب، وتخشع لقلمه سيف البرق المسنون»[4].

وكان من دماثة أخلاقه، وتقديره للعلم لا يأ نف من السؤال عن شيء أبهم عليه، فكان يسأل صديقة السبكي عمّا يحتاج إلية من فقه، وحديث، وأصول، ونحو، وكان للصفدي كما يقول السبكي: «همةٌ عالية في التحصيل، فما صنف كتاباً إلا وسألني فيه عمّا يحتاج إليه من فقه، وحديث وأصول ونحو»[5].

ومن هذا القبيل خدمته لشيوخه في حلّهم وترحالهم، وهذا ما يخبر به في اصطحابه لعلي بن عبد الكافي السبكي "وكنت أنا في خدمته طول الطريق، فالتقطت الفوائد، وجمعت الفرائد التي ظل في طلبها ألف رائد، وسهلت بسؤاله ما كان عندي من الغوامض الشدائد»[6].

---

(١) انظر المصدر السابق، ٢/ ١٧٦.

(٢) الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **غوامض الصحاح**، تحقيق عبدالإله نبهان، مكتبة لبنان، ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.

(٣) ابن فضل الله ، **مسالك الأبصار**، ١٢/ ٣٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ١٢/ ٣٧١.

(٥) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/ ٦.

(٦) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٤٣٠.

فهو لا يجد حرجاً في خدمة أهل العلم، ولا يسأم من أسئلتهم، وكان ملازماً لهم، يمضي نهاره بصحبتهم، ولا يرى في ذلك إلا متعة العلم، وحب المعرفة، ومن الذين صحبهم الصفدي في طلب العلم: ابن سيد الناس حيث يقول الصفدي: صحبته مدة فلم أر معه من الزمان شدة، ونمت معه ليالي، وخالطته أياماً، ورعيت من حسن وده آراكاً، وبربراً، وبشاماً»[1].

ومما يدل على حرص الصفدي على طلب العلم، وجديته في تحصيله، عدم ترك دواعيه حتى في رحلاته مع الأمراء للصيد، فقد التقى صفي الدين الحلّي في رحلة صيد بصحبة الأمير سيف الدين تنكز، فأجاز له الحلي بخطه جميع ماله من نظم، ونثر، وتاليف[2].

«وكان رأساً في صناعة الإنشاء، بارعاً في النظم، والنثر»[3] وكان مولعاً بالكتابة، فقال: «وكتبت في ديوان الإنشاء ضعفا ذلك»[4].

ويصف بسام أبو بشير الصفدي بأنّه «إنسان أقرب إلى العبقرية والمواهب المتعددة منه إلى الإنسان العادي»[5] ونحن لا نختلف معه في هذا الرأي كون الصفدي أسر بشهرته العلمية قلوب شيوخه، فجعلهم يجلسون مع تلاميذه يستمعون لما يقوله، ولولا نبوغه وعلو شأنه وحسن أخلاقه لما فعلوا ذلك.

شيوخه:

كان الصفدي محباً للعلم وأهله، فقد طلب العلم قبل أن يرتحل عن صفد، وكان

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٠٤، البربر: هو الأول من ثمر الأراك والبشام شجرٌ عطر الرائحة ورقه يسوّد الشعر ويستاك بقضبه، المصدر نفسه ، ٥/ ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٧١.

(٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/ ٧٦٤.

(٤) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٦/ ٢٠١.

(٥) أبو بشير، **صلاح الدين الصفدي، حياته وآثاره**، ص٩٧.

من شيوخه كما يخبر هو : « الشيخ نجم الدين الصفدي(٧٢٣هـ/١٣٢٣م) الذي كان كاتباً للسر، وخطيباً بصفد، وهو الذي حببّ إليه الأدب، وصناعة الإنشاء»[١] ويقول الصفدي: «ولم أقرأ على أحد قبله»[٢].

وقد أخذ الصفدي علومه عن كوكبة من علماء عصره، ومن هؤلاء الشيوخ:-

الشهاب محمود الحلبي[٣] (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) تكاد تجمع المصادر على أن الصفدي تعاطى مهنة الأدب على يد شهاب الدين الحلبي وهذا مما ورد عن الصفدي نفسه، فقد كان الحلبي يقدم للصفدي نصحه في فنّ المعارضات، ويشجعه على ذلك فيقول "نفس جيد دال على التمكن والقدرة، ولكن اجتهد إذا عارضت أحداً أن يكون قولك في وزنه ورويّه»[٤] ففي هذه النصيحة التي تُلمح فيها روح التلمذة، وقبول النقد، يوصي الحلبي تلميذه الصفدي بأسس فن المعارضة.

وكان الصفدي يعرض على شيخه الحلبي المقامات الحريرية، وهذا واضح في قوله: «وكنت قد قرأت عليه المقامات الحريرية، وانتهيت فيها إلى آخر المقامة الخامسة والعشرين في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة»[٥] وهذا يدل على قوة حافظته، ويعزز هذا أنه عرض على الحلبي ديوان المتنبي، وألفيّة ابن مالك[٦].

ومما يجدر ذكره أن الشهاب محمود الحلبي كان له الأثر الأكبر في صقل شخصية الصفدي الأدبية، وهذا الأمر يظهر من خلال رأي الصفدي في شيخه الحلبي، عندما يقول في حقّه: «وعلى الجملة فلم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره، لأنه كان

---

(١) الدروبي، سمير، **مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق**، ص٧٩.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٢/ ٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ٥/ ٢٧٣.

(٤) المصدر نفسه، ٥/ ٣٨٢.

(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٣٧٦.

(٦) المصدر نفسه، ٥/ ٣٧٨.

ناظماً، وناثراً، عارفاً بأيام الناس، وتراجمهم»[1] .

وقد حصل الصفدي على إجازات كثيرة من شيخه الحلبي، ساقها الصفدي في كتابه أعيان العصر وأعوان النصر[2].

ومن شيوخ الصفدي: علي بن عبد الكافي السبكي[3] (٧٥٦هـ/١٣٥٥م) فقد صحبه الصفدي، وأكد ذلك تاج الدين السبكي بقوله: «فإنه كان يتردد إلى والدي»[4]، ويخبر الصفدي أنه قد صحب الشيخ السبكي في سفره مرةً، وظل يخدمه طول الطريق، ويلتقط من فرائده وفوائده[5].

ومن شيوخه: الحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزي[6] (٧٤٢هـ/١٣٤١م) حيث قرأ عليه من لفظه ديوان خطب ابن نباتة (الأربعين النووية) وسمع عليه من الأجزاء كثيراً، وسمع هو شيئاً من شعر الصفدي، وقرأ عليه كذلك الصفدي كتاب الشمائل للترمذي[7]. وقد أخذ عنه الصفدي علوم اللغة[8].

ومن شيوخه: الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي[9] (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) يقول الصفدي: «اجتمعت به غير مرة- وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه، ولم أجد عنده جمود المحدثين، ولا كودنة النقلة، بل هو فقيه النظر له دربة بأقوال الناس، ومذاهب الأئمة، والسلف، وأرباب المقالات»[10]. وقد قرأ

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه ٥/ ٣٧٦-٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٤١٧.

(٤) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/ ٥.

(٥) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٤٢١.

(٦) المصدر نفسه، ٥/ ٦٤٤.

(٧) انظر المصدر نفسه، ٥/ ٦٥٤.

(٨) أبو بشير، **صلاح الدين الصفدي، حياته وآثاره**، ص٤٤.

(٩) الصفدي، أعيان العصر، ٤/ ٢٨٨.

(١٠) المصدر نفسه، ٤/ ٢٩٠.

الصفدي على شيخه الذهبي "تاريخ الإسلام"[1] لذا أخذ الصفدي عنه المغازي، والسير، والتاريخ.

ومن شيوخه: قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة[2] (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) يقول الصفدي في حقّه «كان إمام زمانه، وصدر أوانه، وانتهت إليه رئاسة الدين والدنيا»[3] وسمع عليه الصفدي مع جماعة بمنزله بمصر المجاور للجامع الناصري، وأجاز له في سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة[4].

ومن شيوخه: فتح الدين بن سيّد الناس[5] (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) وهذا الشيخ صحبه الصفدي زمناً طويلاً، كما يقول: "صحبته مدة فلم أرَ معه من الزمان شدّة، ونمت معه ليالي، وخالطته أياماً ورعيت من حسنِ ودّه آراكاً، وبربراً، وبشاماً»[6] وقد أخذ عنه المغازي والسير.

ومن شيوخه صفي الدين الحلّي[7] (٧٥٢هـ/١٣٥١م) اجتمع به الصفدي في حلب، وقد صحبه في رحلة صيد، فأجاز له وبخطه جميع ماله من نظم، أو نثر، أو تأليف، وما يتفق له بعد ذلك التاريخ[8].

ومن شيوخه: أثير الدين أبو حيان الأندلسي[9] (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) «فقد أخذ عنه النحو»[10]، وهذا الشيخ قرأ القرآن الكريم نحو عشرين ختمة إفراداً، وجمعاً،

---

(١) انظر المصدر السابق، ٤/ ٢٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ٤/ ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ٤/ ٢٠٩.

(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٢٠١.

(٦) المصدر نفسه، ٥/ ٢٠٤.

(٧) المصدر نفسه، ٣/ ٦٨.

(٨) انظر: المصدر نفسه، ٣/ ٧١.

(٩) المصدر نفسه، ٥/ ٣٢٥.

(١٠) أبو بشير، **صلاح الدين الصفدي حياته وآثاره**، ص٤١.

وتتلمذ على مجموعة من الشيوخ[1].

ومن شيوخه: شمس الدين بن نباتة الفارقي المصري[2]، والد الشاعر الناثر جمال الدين بن نباتة، يقول الصفدي «سمعت عليه، وأجاز لي بخطه سنة ثلاثين وسبعمائة»[3] وتوفي (٧٥٠هـ/١٣٥٠م) وأخذ عنه الصفدي الحديث.

ومن شيوخه: فتح الدين الدبابيسي[4] (٧٢٩هـ/١٣٢٩م)

وكان شيخاً أمّياً، ساكناً، ديناً، له جلد على استماع الحديث... أجاز للصفدي، وقال الصفدي فيه[5]:

إنَّ الرواية تحتاج العلوّ فمن ... يسمع على صغرٍ يصعد بتأسيس

ولم يكن ليَ في الإسناد مرتبة ... تعلو وقد حصلتْ لي بالدبابيسي

ومن شيوخه: مُحبّ الدين البندنيجي[6] (٧٣٦هـ/١٣٣٦م)

كان والده من المحدثين العدول، ويقول الصفدي: «سمعت عليه صحيح مسلم بكماله... وأجاز لي بخطه»[7] وأخذ عنه الصفدي الرواية والإسناد.

ومجمل الأمر أنَّ الصفدي تتلمذ على شيوخ يصعب حصرهم، وهذا العدد الكبير من الشيوخ أفاد الصفدي في بناء ثقافة موسوعية، جعلته مؤهلاً لأن يكتب في كلِّ فنّ، لذا ظهر هذا التنوع في مؤلفاته، فكان منها الأدبي، والنقدي، والتاريخي وغيرها.

وعلى كلِّ حال فإنَّ وجود مثل هذه الحركة من الشيوخ والطلبة على حد سواء،

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ٥/١٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ٥/١٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ٥/٦٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ٥/٦٧٧، ٦٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ٣/٥١٥-٥١٦.

(٧) المصدر نفسه، ٣/٥١٦-٥١٧.

تجعلنا نثق بأديب، ومؤرخ ذلك العصر، في جديته في العملية الإبداعية، وتنفي في الوقت ذاته ما يردده بعض المتأخرين من دعاوى تحط من شأن هذا العصر.

تلاميذه:

سمع الصفدي من شيوخه حتى نبغ في العلم، وبزّ أقرانه، واشتهر بين طلبة العلم، فأخذ يتصدى لإلقاء دروسه على تلاميذه، حتى إن بعض أشياخه قد سمع منه، فقد جاء في الدرر الكامنة لابن حجر قوله: «وقد سمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم»[1] وهؤلاء الشيوخ هم أعلام عصرهم في المعارف، والتاريخ، فمن الغريب أن يستمعوا للصفدي لولا نبوغه، وعلو همته في تحصيل العلم، ويعلّق السيد الشرقاوي على هذه الحادثة بقوله: «وسماع الشيوخ من تلاميذهم إذا بلغوا درجة التبحر في علم، تجعلهم أهلاً لسماعهم منهم ظاهرة في تاريخ الثقافة الإسلامية تستحق أن تكون عبرة للأجيال»[2].

ومن تلاميذه: ابن حبيب صاحب تذكرة النبيه حيث يقول في حق الصفدي: «ولي كتابة الإنشاء بدمشق، وبالقاهرة، وأقام بها مدة واجتمعت به فيهما وسمعت من فوائده»[3].

وهذا شيخه الذهبي يقول: «سمع مني وسمعت منه»[4].

أما بالنسبة لطلبة العلم الذين تتلمذوا على الصفدي فهم كثر، فقد ذكر الصفدي في مقدمة كتابه الوافي عدداً كبيراً من التلاميذ فمن هؤلاء:-

---

(١) العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ٢/١٧٦.

(٢) الصفدي، **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٨.

(٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/٢٦٨.

(٤) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٦/٢٠١.

المولى الشيخ الإمام المحدث البليغ نور الدين أبو بكر أحمد بن علي بن محمد بن أبي الفتح المنذري الحنفي، عرف بابن القصوص[1]، ومنهم ولداه المحمّدان، فقد قال: وسمع ذلك أجمع ولداي أبو عبد الله محمد، وأخوه شقيقه أبو بكر محمد[2].

ومن تلاميذه كذلك: بدر الدين محمد أخو القارئ والشيخ المولى شمس الدين محمد بن علي بن محمد الشافعي، عرف بابن المالكي[3]، ومنهم كذلك المولى الشيخ الإمام الفاضل المقرئ الأديب عز الدين أبو البركات والمولى بدر الدين بن الضياء الحموي[4].

ومن تلاميذه: الشيخ الإمام أبو اسحق ابراهيم ابن الشهير بابن شاب رأسه، والأديب صفي الدين عبد المؤمن ابن الحلي، ومحمد بن موسى بن محمد بن مسند بن تميم اللخمي[5].

وكما تتلمذ الصفدي على تقي الدين السبكي، فقد تتلمذ تاج الدين السبكي[6] على الصفدي، وهو ابن شيخ الصفدي المذكور.

وقد سمع من الصفدي كذلك ابنته فاطمة، فقد قال: «سمع ذلك كاملاً ولداي المحمّدان وفاطمة»[7].

وقد اشتهر الصفدي، وذاع صيته، وعلت سمعته، فكثر الطلبة الذين ينهلون من علومه الجمة، ويستمعون إلى فرائده المختلفة.

---

(١) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١/ص ج.
(٢) المصدر نفسه، ١/ص ج.
(٣) المصدر نفسه، ١/ص ج.
(٤) المصدر نفسه، ١/ص ج.
(٥) المصدر نفسه، ١/ص د.
(٦) المصدر نفسه، ١/ ص هـ.
(٧) المصدر نفسه، ١/ ٥٥.

آثاره:-

ترك الصفدي إرثاً عظيماً تزخر به المكتبة العربية، فقد أكثر من التأليف إلى حد عجيب، كما أمتاز هذا الكم بالتنوّع، والتفرد في بعض الأحيان، وأكاد أجزم بأنَّ جميع من ترجم للصفدي قديماً وحديثاً، قد أجمعوا على قدرته العالية في التصنيف والجمع، وفي هذا الشأن يقول ابن حبيب: «وله المصنفات المفيدة العديدة في الأدب والتاريخ، وغير ذلك[1] ويقول صاحب البدر الطالع: «ألّف كتباً منها التاريخ الكبير الذي سماه الوافي بالوفيات[2] وكذلك يقول صديقه السبكي «وصنف الكثير في التاريخ والأدب»[3]، ويقول ابن تغري بردي: «وله مصنفات كثيرة في التاريخ. والأدب، والبديع وغير ذلك، وتاريخه المسمى الوافي بالوفيات في غاية الحسن»[4].

ويذكره ابن العماد بقوله: «ووقفت على ترجمة كتبها لنفسه نحو كراسين ذكر فيها أحواله، ومشايخه، وأسماء مصنفاته، وهي نحو الخمسين مصنفاً، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله، وقال: وكتبت في ديوان الإنشاء ضعفي ذلك»[5].

وجاء في الدّرر الكامنة ما قاله ابن كثير: «كتب ما يقارب مئتين من المجلدات»[6].

ويقول محمود رزق سليم: «بأنه أحد هواة التأليف الذين ابتدعوا موضوعاته ابتداعاً، وكتبوا في غريب البحوث وعجيبها»[7].

وفي هذا القدر كفاية من الأقوال في قدرة الصفدي على التأليف.

وقد تناثرت أسماء كتب الصفدي في مؤلفات مؤرخي الأدب القدماء وبعض الدراسات الحديثة التي تناولت حياته ونتاجه الفكري[8]. ولم أجد كتاباً- على حدود

---

(١) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/٢٦٨.
(٢) الشوكاني، **البدر الطالع**، ١/٢٤٣.
(٣) السبكي، **طبقات الشافعية**، ١٠/٥.
(٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/١٩.
(٥) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٦/٢٠١.
(٦) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/١٧٧.
(٧) سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك**، ق١/ج٣. ص٤٠٥.
(٨) انظر ترجمة الصفدي في المصادر والمراجع التي وردت في الصفحتين ، ص٢٢-٢٣، انظر: بروكلمان (كارل)، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة حسن محمود إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ق٦، ح١٠، ص١١٤-١٢١.

معرفتي- استوعب ذكرها جميعاً سوى الرسالة الجامعية الموسومة بـ صلاح الدين الصفدي حياته وآثاره، لمعدها بسام أبو بشير، فقد سرد كلَّ مؤلفات الصفدي على النحو الآتي[1]:

١- الوافي بالوفيات، بدأت جمعية المستشرقين بنشره مجزءاً منذ ١٩٥٩م

٢- أعيان العصر وأعوان النصر، نشر بتحقيق علي أبي زيد، دار الفكر.

٣- اختراع الخراع، مخطوط، بروكلمان، ق٦ ج١٠ ص١٢٠.

٤- ألحان السواجع بين البادي والمراجع، مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٦.

٥- التذكرة الصفدية. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٧.

٦- تصحيح التصحيف وتحرير التحريف. نشر بتحقيق السيد الشرقاوي ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٧- الغيث المسجم في شرح لأمية العجم. مطبوع، ط١ الإسكندرية ١٢٩٠هـ.

٨- تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب. نشر بتحقيق زهير حمدان الصمصام، دمشق، ١٩٩١م.

٩- تشنيف السمع بانسكاب الدمع. طبع في مصر، مطبعة الموسوعات ١٣٢١هـ.

١٠- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية). مطبوع بدمشق ١٣٢٧هـ.

١١- توشيع التوشيح. نشره ألبير حبيب مطلق.

١٢- جنان الجناس. نشر بتحقيق سمير حسين حلبي. دار الكتب العلمية بيروت.

١٣- نكت الهميان في نكت العميان. نُشر بتحقيق أحمد زكي بك، القاهرة ١٣٢٩هـ-١٩١١م.

---

(١) أبو بشير ، **صلاح الدين الصفدي، حياته وآثاره**، ص١١١-١١٤.

١٤- أمراء دمشق في الإسلام، نشر بتحقيق صلاح الدين المنجد- دمشق.

١٥- الشعور بالعور نشر بتحقيق عبد الرزاق حسين- عمان، ١٩٨٨م.

١٦- لوعة الشاكي ودمعة الباكي. نشر بتحقيق عبد الملك الوادعي بيروت ١٩٩١م.

١٧- الحسن الصريح في مائة مليح. مخطوط، هدية العارفين ٣٥١/٥.

١٨- ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء. مخطوط، بروكلمان، ق٦ ج.١ ص١١٧.

١٩- نصرة الثائر على المثل السائر. نشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٢م بتحقيق محمد علي سلطاني.

٢٠- فض الختام عن التورية والاستخدام ، نُشر بتحقيق المحمدي عبدالعزيز الحناوي.

٢١- المجاراة والمجازاة. مخطوط بروكلمان، ق٦ ج١٠، ص١١٩.

٢٢- منشآت الصفدي. مخطوط بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٦.

٢٣- جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة. مخطوط، الدرر الكامنة ١٧٢/٢.

٢٤- جر الذيل في وصف الخيل. مخطوط، الدرر الكامنة ١٧٢/٢.

٢٥- كشف الحال في صف الخال. مخطوط، الدرر الكامنة ١٧٢/٢.

٢٦- الروض الناسم والثغر الباسم. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٩.

٢٧- رشف الزلال في وصف الهلال، مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٩.

٢٨- حلي النواهد على ما في الصحاح من الشواهد مخطوط، هدية العارفين ٣٥١/٥.

٢٩- رشف الرحيق في وصف الحريق. نشر بتحقيق سمير الدروبي مجلة البلقاء.

٣٠- رموز الشجرة النعمانية. مخطوط، هدية العارفين ٣٥٢/٥.

٣١- صرف العين في وصف العين. مخطوط، هدية العارفين ٣٥٢/٥.

٣٢- طرد السبع عن سرد السبع. مخطوط، هدية العارفين ٣٥٢/٥.

٣٣- طوق الحمامة. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠، ص١٢٠.

٣٤- العرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي. مخطوط،غوامض الصحاح، ص٢٣.

٣٥- عبرة اللبيب بعثرة الكثيب. مخطوط هدية العارفين ٣٥٢/٥.

٣٦- غوامض الصحاح. نشر بتحقيق عبد الإله نبهان- لبنان .

٣٧- قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة. مطبوع غوامض الصحاح، ص٢٥.

٣٨- كشف السر المبهم في لزوم ما لا يلزم. مخطوط،غوامض الصحاح، ص٢٥.

٢٩- نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم. مخطوط، هدية العارفين ٥/ ٣٥٢.

٤٠- نجد الفلاح في مختصر الصحاح. مخطوط هدية العارفين ٣٥٢/٥.

٤١- الهول المعجب في القول المعجب. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١٢١.

٤٢- الأرب من غيث الأدب.

٤٣- حقيقة المجاز إلى الحجاز. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٠.

٤٤- خلع العذار في وصف العذار. مخطوط، هدية العارفين ٣٥١/٥.

٤٥- ديوان الصفدي. مخطوط، النجوم الزاهرة ١٩/١١.

٤٦- رسالة في علم الموسيقا. نشر بتحقيق عبد المجيد دياب- القاهرة.

٤٧- طراز الألغاز.

٤٨- غرة الصبح في اللعب بالرمح. غوامض الصحاح، ص٢٣.

٤٩- الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه. مخطوط، الدرر الكامنة ١٧٦/٢.

٥٠- نظم المثاني والمثالث. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٦.

٥١- إخراج رسالة محي الدين بن عبد الظاهر إلى الأمير ناصر الدين. ابن شاور الكناني. ملحقة بكتابه تمام المتون/ بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١٢١.

٥٢- القصيدة اللامية. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١٢٠.

٥٣- القصيدة التائية. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١١٩.

٥٤- زهرة الخمائل وذكر الدلائل. غوامض الصحاح، ص٢٢.

٥٥- قصيدة- طائية. بروكلمان، ق٦، ج١٠، ص١١٨.

٥٦- الفضل المنيف في المولد الشريف. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٤.

٥٧- قطعة عمل في الأغلاط اللغوية. بروكلمان، ق٦ ج١٠ ص١٢١.

٥٨- مفاتيح الأسرار ومصابيح الأكوار. بروكلمان، ق٦ ج١٠ ص١٢١.

٥٩- المقترح في المصطلح. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٦.

٦٠- نجم الدياجي في نظم الأهاجي. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٦.

٦١- نسخة الصداق. بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١٢١.

٦٢- حرم المرح في تهذيب ملح الملح. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٠.

٦٣- شرح الجهورية. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٢.

٦٤- صورة رحلة. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٢.

٦٥- طراز الألباب. مخطوط، غوامض الصحاح، ص٢٢.

٦٦- قانون الترسل. مخطوط ، غوامض الصحاح، ص٢٤.

٦٧- المحاورة الصلاحية في الأحاجي الإصطلاحية. مخطوط، بروكلمان ق٦ ج١٠ ص١٢١.

وبعد أن أحصى مؤلفات الصفدي أشار إلى أن معظمها فُقِدَ ولم يصل إلينا في هذا العصر[1].

---

(١) انظر المرجع السابق، ص١١٤.

رأي العلماء فيه:-

لقد أبدى كثيرٌ من العلماء القدماء والمحدثين آراءً تكاد تكون موحدة في حقّ الصفدي، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، نورد أولاً بعض ما قاله القدماء، كما ورد في مؤلفاتهم.

فيقول صاحبه وصديقه ابن فضل الله العمري: «وقررت له وأقررت أنه إمام المحسنين، وبايعته واتبعته وأنا من الموقنين»[1].

ويقول ابن تغري بردي: «الشيخ الإمام الأديب المفتن... كان إماماً بارعاً، كاتباً، ناظماً، ناثراً، شاعراً»[2].

ويقول فيه ابن حبيب: «وكان عالماً، فاضلاً، كاتباً، مجيداً، رئيساً، جليلاً، إماماً في معرفة الأدب، رأساً في صناعة الإنشاء، بارعاً في النظم والنثر»[3].

ويقول ابن حجر العسقلاني: «كان محبباً إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة»[4].

وقال الحسيني وهو أحد شيوخه: «كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم»[5].

وقال ابن سعد: «كان من بقايا الرؤساء والأخيار»[6].

وقال فيه المقريزي: «كان إماماً، أديباً، له همة عالية في التحصيل، إذا صنّف كتاباً راجع أهل العلم فيما يحتاج إليه من مواد العلم، كالحديث، والفقه، والأصول»[7].

---

(١) ابن فضل الله، **مسالك الأبصار**، ١٢/ ٣٧٠.

(٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ١١/ ١٩،

(٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٣/ ٢٦٤.

(٤) العسقلاني، **الدّرر الكامنة**، ٢/ ١٧٦.

(٥) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٧.

(٦) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٧.

(٧) المقريزي، **المقفى الكبير**، ٣/ ٧٦٨.

وكلّ ما قدمت من آراء للقدماء في الصفدي تشهد بعلو همته، وجميل خصاله، وحسن صداقته، وعظيم هيبته، إلا أن بعض القدماء قد أشاروا إلى بعض هنات، قد وقع فيها الصفدي، وهي سرقاته الشعرية على حدّ زعمهم، فقد جاء في البدر الطالع للشوكاني قوله: «وكان يختلس معاني شعر شيخه ابن نباتة وينظمها لنفسه، وقد صنف ابن نباتة في ذلك مصنفاً سمّاه خبز الشعير المأكول المذموم بيّن فيه سرقاته لشعره»[1].

وقد أنصف ابن تغري بردي[2] الصفدي عندما قدم رأيه في شعر الصفدي، فقال: «هو شاعر مجيد على أنَّ جيده يزيد على رديئه، ولولا أنه كان ضنيناً بنفسه، راضياً بشعره، لكان يندر له الرديء، ويكثر منه الجيد، فإنه كان غواصاً على المعاني، مبتكراً للنكتة البديعة، عارفاً بفنون الأدب، لكن رأيت من نظمه بخطه عندما يعارض بعض من تقدمه من مجيدي الشعراء في معنى من المعاني اللطيفة، فيأخذ ذلك المعنى، أو النكتة، فينظمها في بيتين ويجيد فيهما بحسب الحال، ثم ينظم أيضاً في ذلك المعنى بعينه بيتين أخر، ثم بيتين، ثم بيتين، ولا يزال ينظم في ذلك المعنى، وهو يقول: وقلت أنا إلى أن يمله النظر، وتسأمه النفس، ويمجه السمع، فلو ترك ذلك، وتحرى في قريضة، لكان من الشعراء المجيدين، لما يظهر لي من قوة شعره، وحسن اختراعه»[3].

أما بالنسبة لآراء المحدثين، فقد أبدوا إعجاباً من سجاياه الكريمة، وكثرة مؤلفاته، وتنوعها.

فمن هؤلاء جرجي زيدان، فقد قال فيه: «وهو من أعظم كتاب العصر المغولي،

---

(١) الشوكاني، البدر الطالع، ١/ ٢٤٤.

(٢) نُسب هذا الرأي في بعض المراجع إلى ابن الفرات ت (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) من مثل الدكتور المحمدي عبدالعزيز الحناوي، محقق فض الختام عن الثورية والاستخدام، ط١، ص٩، وكذلك ابو بشير، **صلاح الدين الصفدي حياته وآثاره**، ص٩١-٩٢.

(٣) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٥/ ٢٥٧.

ومن أوسعهم علماً، وأكثرهم عملاً، ألّف في موضوعات شتى، وعلى أساليب حسنة، وغلبت عليه التراجم التاريخية»[1].

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية في حقه: «كان الصفدي كاتباً، مكثراً إلى حدٍّ عجيب، وقد ذكر في سيرته التي كتبها بقلمه أن مصنفاته ستملأ خمسمائة مجلد، وأن ما دبّجه قلمه وهو يتولّى منصب الكاتب يملأ ضعف هذا القدر من المجلدات على الأقل»[2].

ويبدي إحسان عباس رأيه فيه بقوله: «قد كان الصفدي من أولئك المكثرين الذين كتبوا، وصنفوا، فبلغت مصنفاته ما يقارب خمسمائة مجلد، هذا عدا التوقيعات والرسائل الإنشائية التي كتبها وهو يبلغ ضعفي ذلك»[3].

ويشير بسام أبو بشير إلى: «أنّ الصفدي شكّل همزة وصل بين أدباء وشعراء عصره، وكتّاب الإنشاء، واتفق القدماء والمحدثون من الذين ذكروه كشاعرٍ، أو أديب، أو مؤرخ، أو ناقد، بأنه محل اتفاق، وليس محل اختلاف في التعريف بشخصه، وخصاله، وآثاره»[4].

وإذا أردنا أن نجمع آراء العلماء في الصفدي فسوف نجد الكثير من عبارات التبجيل، والثناء التي تتلوّن من كاتب إلى آخر، لكنني أكتفي بهذا القدر على نزارته، وأختم بالقول: إنّ الصفدي كان جذراً أساسياً في ثقافة عصره، ومصدراً لا يستغنى عنه بغيره، ومنارة علم يهتدى بها، ولو وصلت إلينا كتبه، لتكشفت أمامنا متاهات كثيرة في ذلك العصر، فهو مؤرخ من نوع آخر يسجل أحداثه بأسلوب أدبي، وهذا واضح في سرده لحياة تراجمه، ويظهر كذلك في مقاماته، وسيأتي الحديث عن ذلك في مكانه.

---

(١) زيدان، **تاريخ آداب العربية**، ٣/ ١٧٠.

(٢) الشنتناوي، **دائرة المعارف الإسلامية**، ١٤/ ٢٣٠.

(٣) عباس، إحسان، **صلاح الدين الصفدي**، مجلة العربي، ص١١٤.

(٤) ابو بشير، **صلاح الدين الصفدي، حياته وآثاره**، ص٩٧.

وفاته:-

أجمعت المصادر والمراجع[1] على أن الصفدي انتقل إلى الرفيق الأعلى في العاشر من شوال سنة أربع وستين وسبعمائة للهجرة، ليلة الأحد، ودفن في مقابر الصوفية في دمشق، وكما أجمعت المصادر على تاريخ وفاته ومكانها، فقد اجتمعت أيضاً على أنه مات بالطاعون الذي انتشر في ذلك العصر.

وبوفاة الصفدي حزن عليه طلبة العلم، وأصدقاؤه، كحزن أهله، ونظم الشعراء من أصدقائه قصائد الرثاء التي طالما نظمها هو في موت غيره، فمن الأصدقاء الذين نظموا أبياتاً في رثائه: صديقه الشاعر جمال الدين بن نباتة الفارقي: وهو قوله[2]:

فقدت من الخلان قوماً سألتهم ... دوام الوفا إنَّ الوفاءَ قليلُ

وإنَّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على أنْ لا يدوم خليلُ

وبوفاته فقدت الأمة علماً من أهم أعلامها، حبّر صفحات الكتب بعلمه الغزير، ولا أظن أن أكون مبالغاً إذا قلت فقدت الأمة نادرة العصر.

---

(١) جميع المصادر والمراجع التي ذكرت اسمه ذكرت تاريخ ومكان وفاته.

(٢) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، الجزء الأول-القسم الثاني، ص٧.

الفصل الثاني

الدراسة المضمونية لنثر صلاح الدين الصفدي

تبحّر الصفدي في فنّ الكتابة« وساد في علم الرسائل» [1] كما يصفه شيخه الذهبي، «وهو أجل كاتب تخضع لطرسهِ مهارق السحائب، ويخشع لقلمه سيف البرق المسنون. . . . . وكتب الإنشاء مصراً، فكتب وجرت معه القرائح، إلا إنها السوابق فكبت وطاب بها الواديان، وطال الناديان، وقلّد الممالك ما هو أعلق بها من أطواق الحمائم، وأعبق فيها جنوب الغمائم، وله التصانيف الكثيرة الكبيرة»[2] لذا فقد كتب الصفدي في شتى أنواع الكتابة التي كانت معروفة في عصره: رسمية وشخصية.

الرسائل الديوانية:-

يعرّف محمود رزق سليم الرسائل الديوانية « بتلك التي كان يدبّجها كتّاب ديوان الإنشاء في المناسبات الرسمية للدولة، جارية على لسان السلطان، أو أمر منه»[3] وهذا التعريف يقتصر على رسائل ديوان الإنشاء المملوكي، أما بالنسبة لمصطلح الرسائل الديوانيةفقد وضع فايز القيسي تعريفاً يكاد يكون جامعاً شاملاً في هذا الأمر، ألا هو قوله «هي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي، الذي يتعلق بالحياة العامة، وشؤون الرعية»[4] وإذا ماعاودنا النظر في تعريف الرسائل الديوانية، الذي أورده محمود رزق سليم، فإنّنا نجد عدة أمور تحتاج إلى التوضيح، فأولها: إنّ هذه الرسائل يدبّجها كتّاب الإنشاء، ويتالف ديوان الإنشاء من:-

---

(١) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٦/ ٢٠١.

(٢) ابن فضل الله، **مسالك الأبصار**، ١٢/ ٣٧١.

(٣) سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص١١٢.

(٤) القيسي، فايز عبدالنبي، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، دار البشير للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١١١.

- رئيسه، ويسمى صاحب الدّيوان أو كاتب السرّ.

- كُتّاب الدّست.

-كُتّاب الدَّرج.

ونحن نعلم أن الصفدي تدرج في هذه المراحل. من كاتب الدرج في صفد والقاهرة إلى كتاب السرّ في الرحبة؛ لذا فإنّه ضليعٌ في كتابة تلك الرسائل والعلم بفنونها.

وثاني هذه الأمور: إنّها تكتب في المناسبات الرسمية، وعليه فإنها تنحو منحى رسمياً له طابعه الخاص والمميز.

وثالثها:- إنّها جارية على لسان السلطان،أو أمر منه ، وهذا يدلنا على أنّها رسائل تصدر بأمر الحاكم، وليس بأمر كاتب السّرّ، أو من هو أدنى منه، ولكنّ العبارات وترتيب الأفكار والمعاني من صناعة الكاتب، وهذا ما يقوله القلقشندي: « فأمّا كتابة الإنشاء فالمراد بها كل مارجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات، والمسامحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها»[1]. وبما أنَّ الكاتب له حرّية التصرف في قوالب الألفاظ، والتراكيب في تلك الرسائل، فإنَّ الكتّاب حينئذٍ يختلفون في مواهبهم الكتابية، وقدرتهم على التعبير، لذا نرى تميّز بعضهم في هذه الصناعة، والصلاح الصفدي له الباع الطويل في إنشاء مثل تلك الرسائل، نظراً لموهبته وطول الفترة التي قضاها في ديوان الإنشاء.

ومن أشهر تلك الرسائل كما يشير محمود رزق سليم:

«الرسائل الملوكية وما يتصل بها من مهادنات، ويمين، ومفاسخات، ومنها العهود، والمبايعات، ومنها التقاليد، والتواقيع، والمناشير، والمراسيم، والمساميح، ومنها

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١/ ٨٤.

البشارات، ومنها الصداق، فهذه أهم أنواعها»[1].

أمّا أبرز تلك الرسائل التي برزّ فيها الصفدي، فهي التقاليد، والتواقيع، والمراسيم، والمناشير، والبشارات، وقد أنشأ الصفدي العديد منها أثناء عمله في ديوان الإنشاء:-

التقاليد:-

«جمع تقليد؛ يقال قلدته أمر كذا، إذا وليته إياه»[2] يعرّف محمود رزق سليم التقاليد بقوله: «من أهم الرسائل الديوانية والتقليد بمثابة أمر تعين يصدر إلى موظفٍ من كبار موظفي الدولة، أو تسجيل لهذا الأمر، وإذانٍ به، وتحديد له، ويكتب على لسان السلطان، بقلم صاحب ديوان الإنشاء، أو أحد منشئي ديوان الإنشاءبالممالك الإسلامية الشريفة»[3] والرسائل الديوانية بما فيها التقاليد قمّة في الدّقه، في مضمونها وشكلها، فهي تتخد شكلاً معينا، يقول القلقشندي: «ثم التقليد يشتمل على طرّة، ومتن»[4] ويرى شهاب الدين محمود الحلبي أنَّ التقليد، أربعة أقسام فيقول:

«ويحسن أن يكون الكلام منقسماً في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير، فالربع الأول الخطبة، والثاني ذكر موقع الإنعام في حق المقلَّد، وذكر الرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف المقلّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة، ويناسب حاله في عدل، وسياسة أو مهابة، وبُعد صيت أو سمعة، وشجاعة، إن كان نائباً، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير، والمعرفة بوجده الأموال، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال، وما يناسب ذلك أن يكون وزيراً، وكذلك في كل رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا، وهذه هي القاعدة في مثل ذلك، ومنها أن يراعي المناسبة، وما تقتضيه الحال،

---

(١) سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ج٣، ص١١٣.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص١٠١.

(٣) سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ج٣، ص١٣٢.

(٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص١٠١.

فلا يعطي أحداً فوق حقّه، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله»[1].

ومن مظاهر الدّقّة في تلك التقاليد أنّها لا تكتب إلا لصاحب ديوان الإنشاء، وقضاة القضاة، ونظّار الأوقاف، والوزراء، وبعض نوّاب السلطنة، وبعض أمراء النواحي، والمملكين بها، والموالين للسلطان، وكتّاب السرّ[2].

ويدعم هذا الرأي قول ابن فضل الله العمري: «ولا تكون إلا لكفلاء الملك، كأكابر النواب، والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة»[3].

وهناك شروط يجب أن يتلزم بها كاتب التقليد: «فلا يستفتح إلا بالخطب بالحمد الله، وليس إلا ثم يقال بعدها: أما بعد ، ثم يذكر ما يسنح من حال الولاية، وحال المولّي، وحسن الفكر فيمن يصلح، وأنّه لم يرَ أحقَّ من ذلك المولّى»[4].

ولصلاح الدين الصفدي تقليدٌ ، كتبه عن السلطان ، بتعيين الأمير أيدمر الزراق في نيابة غزة: «الحمدُ لله الذي زاد أولياء دولتنا القاهرة عزّاً، وجعل أصفياء أيامنا الزاهرة كُفاة تعود الممالك بهم حرزاً، وجرد من أنصارنا كل نصل راع حدّاً، وراق زهراً، ووفّق آراءنا الشريفة لأن يكون من نعتمد عليه يستند إليه العزّ ويعزى»[5].

وبما أن غرض التقليد تعيين أميرٍ ، فهذا يتطلب من الكاتب أن يحسن اختيار العبارات التي تنمُّ عن الحال، فالصفدي بدأ بالحمد وجعله مقروناً بأولياء الدولة وأصفيائها، فهم عزٌّ لهذه الدولة القاهرة، ونورٌ مزهر لأيامها، وهم حُماتها من كلّ خطر، وسأل الله العلي العظيم أن يكون مَنْ ولي أمر تلك الممالك أن يستند إليه العزّ ،

---

(١) الحلبي، شهاب الدين محمود (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، تحقق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ص٣٦٨.

(٢) انظر سليم، ، **عصر سلاطين المماليك**، ق٢ج١، ص١٣٢ .

(٣) العمري، أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١١٢ .

(٤) المصدر نفسه، ص١١٥ .

(٥) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٦٦٣.

ويعتمد عليه في تلك المهمة، وهذا الأمر من براعة الاستهلال.

وبعد الحمد يشهد بالوحدانية ، ويصلي على رسوله الكريم، وعلى الصحابة الأبرار، الذين تلألأت أنوارهم في الآفاق، آملاً أن يقتدي النائب بسيرتهم الطيبة، وينشر نور العدل في ولايته.

وبعد الخطبة التي روعي فيها براعة الاستهلال -ولا غرو فالصفدي يعرف ذلك جيداً- يشرع في تعريف ذلك المكان الذي سيوجّه المولَّى إليه، وهي غزّة، فيقول: «فإنَّ ممالكنا الشريفة ، منها ما هو عالي المكانة داني المكان، موفر الاستكانة.. وقد جاور الأرض المقدسة، وكفاها فخراً بما يروى عنها أن الإمام الشافعي رضي الله عنه منها»[1] فهذه عبارات قليلة الألفاظ كثيرة المعاني ففي هذه العبارات استطاع الصفدي أن يقدم وصفاً لغزة من حيث مكانها ومكانتها.

أما بالنسبة لطول الخطبة وقصرها ، فقد كان لابن فضل الله العمري رأيٌ يخالف رأي الشيخ شهاب الدين الحلبي، فيقول: «واعلم أنّ شيخنا شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قسّم مقدار التقليد ، أو التوقيع تقسيماً لا أرضاه ، والذي أراه اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة والخطبة مطلقاً وإطالة ما بعد ذلك»[2].

والناظر في التقليد الذي أنشأه الصفدي يجد الإطناب في خطبته، والإطالة فيها، وهكذا يظهر أثر الشيخ في تلميذه، فالصفدي مدينٌ للحلبي في هذه الكتابة، حيث كان الصفدي يعمل إلى جانب الحلبي في ديوان الإنشاء.

وكما هو مقرر للكاتب أنْ يلتزم به بعد الخطبة من «ذكر ما يسنح من حال الولاية، وحال المولِّي، وحسن الفكر فيمن يصلح»[3] فقد التزم بذلك الصفدي فقال: «ولما كان المجلس العالي الأميري والقابه ونعوته من أعيان هذه الدولة، وأعوان هذه الأيام التي

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٦٦٤.

(٢) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٥.

زانها الصوت والصولة، قد اتّصف بالحلم والبأس، والأناة والإيناس، والمهابة التي طودها راسخ رأس ، والشجاعة التي مرامها صعب المراس»[1].

يظهر في هذا النص إعجاب الصفدي ، وفخره بدولته التي زانتها الصولة والجولة، وشرع بعد ذلك في ذكر صفات المستحق للتولية من حلم يشوبه الشدّة، والأناة التي تعضدها المهابة ، إلى غير ذلك من صفات.

فهذه الصفات جعلت منه شخصاً مؤهلاً لأن يختاره السلطان، فهو أهلٌ لرعاية هذه الولاية ، والحفاظ على أمنها وأهلها.

وبعد أن وقع اختيار السلطان على ذلك الشخص، فوّض إليه الأمر في تلك الولاية، وحينئذٍ يبدأ الكاتب كما يشير العمري، فيوصي له بما يناسب تلك الولاية، مما لا بد منه تارة جملياً وتارة تفصيلياً ، وينبّه على تقوى الله تعالى، فجاء في تقليد الصفدي: «فليستقر فيما فوّضناه إليه مجتهداً في رضى الله تعالى، فإن ذلك أولى ما نطق به اللسان ، ورضى خواطرنا الشريفة، وهو مغدوق برضى الله الذي أمر بالعدل والإحسان ، معتمداً على طلب الحق الجلي، والإقبال على المستغيث به بوجه وضيّ، وخلق رضيّ ، وعزم مليّ حتى يُنصف المظلوم من ظالمه، ويُرشد الضال عن الصواب إلى معامله، ويُبسط العدل في رعايانا»[2].

ولما كان هذا التقليد موضوعه تولي أمر ولاية شريفة، جاءت لذلك الوصايا التي تحث على العدل ونشر الأمن، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإغاثة المستغيث، وفوق ذلك يبين فضل الحاكم العادل على من سواه، وبيان أثر ذلك على الرعية، فهو كالوبل الذي تنبت به الأزهار، «والحاكم العادل من المطر الوابل»[3] ويرى الصفدي أن الدولة تبدي اهتماماً بالغاً بالجيش لأنّه ينصر الشرع الذي تسير وفقه أنظمة تلك الدولة، فلذلك

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/ ٦٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٥.

كان اعتمادها على الجيش في المقام الأول، «فما شددنا السيف إلا لنصرة الشرع، ولا نعتقد إلا أنّه الأصل وبقية السياسات فرع، والعسكر المنصور فهم منّا بمرأى ومسمع، وعنايتنا بهم تامة تمنحهم الخير وللشر تدفع، فليراع حالهم ويرعها، ويتبّع أصول أمورهم وفرعها»[1].

وفي نهاية التقليد «يختم بالدعاء للمولّى بالإعانة ، أو التأييد، أو المزيد ، أو التوفيق، أو ما يجري هذا المجرى»[2] فيختم الصفدي تقليده السالف الذكر بقوله: «والله يزيده مما أولاه، ويفيده الإعانة على ما ولاّه»[3]، وبعد الدعاء يقال في التقليد: «وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه»[4] وعلى هذا تكون عبارة الصفدي: «والخط الشريف- أعلاه الله تعالى- أعلاه حجّة ثبوت العمل بما اقتضاه»[5].

وللصفدي تقليدٌ آخر أنشأه للناصر في تولية ابن جملة قاضي قضاة الشام، فجاء في خطبة التقليد «ونشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له، شهادة ندّخرها ليوم القضاء والفصل، ونعلم أنها أصل الإيمان، وما سواها فرع، والقياس ردّ فرع إلى أصلٍ، ونعتمد على بركات فضلها في الأمر، والنهي، والقطع، والوصل. . . ونشد أن محمداً عبده ورسوله، خير من قضى ومضى وأعدل من مضى»[6].

فالناظر إلى تلك الفقرة يجدها تفيض بألفاظ الفقه، والقضاء ، من أصل وفرع، وقياس والقضاء، والفصل، والأمر والنهي ، والقطع ، والوصل، وهذا الأمر له مغزاه وهو من باب براعة الاستهلال الذي نبّه الحلبي إليه، فقال: «ويجب أن تراعى في

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٦٦٥.

(٢) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٥-١١٦.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/ ٦٦٦.

(٤) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٦.

(٥) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/ ٦٦٦.

(٦) الصفدي، **أعيان العصر** ، ٥/ ٥٩٨.

التقاليد ، والتواقيع ، والمناشير أمور منها براعة الاستهلال»[1].

وللصفدي كثيرٌ من التقاليد ، منها ما هو محقق كما ورد في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر ومنها ما هو مخطوط.

ويشير محمود رزق سليم إلى أنَّ التقاليد «ربّما كانت أكثر رسائل الديوان صدوراً ، لتواتر حاجة الدولة إلى كبار الموظفين مع كثرة ما يتعرضون له من نقل، أو عزل»[2].

---

(١) الحلبي، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، ص٣٦٨.

(٢) سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص١٣٢.

التواقيع:

«جمع توقيع ، وهو اسم لما يكتب في حواشي القصص، كخطّ الخليفة، أو الوزير في الزمن المتقدم، ثم غلب حتى صار عَلَماً على نوع خاص مما يكتب في الولايات وغيرها، وقد خُصّت فئة المتعممين من أرباب الوظائف الدينية والديوانية، ولا يكتب لأرباب السيوف منها إلا القليل، وعنوانها توقيع شريف لفلان بكذا»[1].

ويرى فايز القيسي أن التوقيعات كان يردّ بها أمراء الأندلس، وحكّامها على الرسائل، والشكاوى التي تُرفع إليهم[2].

ويذكر محمود رزق سليم أن معنى التوقيع بقي له بقية من معناه عند العباسيين: «فقد أطلق لفظ الموقعين على كتّاب الدست الشريف، وذلك لأنهم يوقعون على حواشي القصص، ونحوها في مجلس السلطان»[3].

وإلى جانب ذلك المعنى الذي أشار إليه محمود رزق ، فقد كان له معنى خاص عند المماليك كما مضى في تعريف القلقشندي ، فهو علمٌ على نوع خاص من المكاتبات التي يصدرها ديوان الإنشاء، ويعقّب الكاتب محمود رزق بقوله: «غير أنَّ التوقيع في عصر المماليك أيضاً أطلق على أحد ضروب الرسائل ، والمكاتبات الديوانية»[4].

ويبيّن العمري الوجوه التي تكتب فيها التواقيع : «فهي لعامة أرباب الوظائف ، جليلها وحقيرها ، وكبيرها وصغيرها، حتى النواب اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم»[5] ويستدرك العمري على عبارته بقوله: «وعندي في هذا نظر والذي أرى أن يكون لمن لحق بشأو الكبار منهم تفاويض ، وللصغار مراسيم، ولأدنى الطبقات منهم تواقيع، لميزة السيوف على الأقلام»[6].

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص١١٤.

(٢) انظر القيسي، **أدب الرسائل في الأندلس**، ص١١٦.

(٣) سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص١٣٩.

(٤) المرجع نفسه، ق١ ج٣، ص١٣٩.

(٥) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٢.

(٦) المصدر نفسه، ص١١٢.

ويرى عمر باشا أنَّ التواقيع من المظاهر الحضارية التي تعكس صورة الدولة المنظّمة، وتوضح كذلك سياسة الحكم فيها، لذا كانت كتب التواقيع تُجهَّز إلى البلاد كلِّها، ويلاحظ أنها توضّح بعض مظاهر الحياة الهامة من نصوص أدب ، وعلاقته بالسياسة، ونعرف كذلك من خلالها صورة الحاكم المثالي كما يُفترض أن يكون، وصورة القاضي النزيه العادل ، وصورة الخطيب المفوّه[1].

وللصفدي كثيرٌ من التواقيع ضمّنها كتبه المختلفة، ومن هذه التواقيع نورد جزءاً من توقيع كتبه الصفدي عن السلطان ، بتعيين تاج الدين بن عبدالله في استيفاء البيمارستان المنصوري:

«فإنه لما كان البيمارستان المنصوري وقف والدنا الشهيد الملك المنصور -قدس الله روحه ونوّر بالرضوان ضريحه- أجلّ القربات نفعاً، وأخصب المثوبات مرعى، يجرى نفع أوقافه على الخاص والعام، وينفق من حواصله في اليوم ما ينفق من غيرها في العام، . . . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يرتب في استيفاء البيمارستان المبرور، وأوقافه عوضاً عن أخيه فلان، فليباشر ذلك مباشرة تجمع شتات الحزم، وتلزم ثبات العزم»[2].

يلحظ في هذا التوقيع كثرة عبارات الثناء والدعاء بالرحمة، وذلك لأن هذا البيمارستان وقفه السلطان المنصوري[*] للخاصة و العامة، فكان بهذا العمل حاتماً في كرمه، والمسيح في علاج المرضى وإحياء الموتى، وهذا يؤكّد مدى اهتمام القائمين على البيمارستان من تقديم العون لكلّ مريض.

وللصفدي توقيعٌ آخر ، كتبه عن الملك الصالح بتعيين ابن بلبان في إفتاء دار

---

(١) انظر باشا، عمر موسى، **أدب الدول المتتابعة**، دار الفكر الحديث، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ص٧٩٦.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٢٢٩-٢٣٠.

(*) هو الملك المنصور سيف الدين قلاوون، كان سلطاناً حليماً وشجاعاً من مآثره بناء البيمارستان الذي أنشأه بين القصرين. انظر ترجمته، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٧/٢٩٢

العدل، وهو «رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الصالحي العمادي، لا زال شهابه لامعاً، وسحابه بالنوال هامعاً، وجنابه لأرباب العلم جامعاً، أن يرتب في كذا ركوناً إلى ما أتقنه من العلوم، وسهر له والناس نيام، بشهادة النجوم، وسكوناً إلى ما حصّله في مذهبه وحرّره، وأوضح دليله بالمباحث وقرّره»[1].

ويمضي الصفدي في بيان صفات ذلك المولّى : من إتقان للعلوم ، وسهر ودأب في تحصيلها ، حتى أحرز هذه المكانة، ويوصي الصفدي المولّى بتقوى الله، وذلك كونه أصبح نجيّ الملوك «وقوله عندهم أنفس من الدّرّ المنظم في السُّلوك، وألفاظه عندهم حجّة في الأوامر والنواهي، وفتاويه عندها المآل وإليها التناهي»[2].

وقد أكثر الصفدي من التواقيع إلى حدٍّ عجيب، وكانت تواقيعه في أغلبها ارتجالاً من رأس القلم كما يخبر، وهذا دليلٌ على قدرته العالية على التأليف.

---

(١) المصدر السابق، ١/٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ١/٢٠٥.

المراسيم:

«جمع مرسوم أخذاً من قولهم رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله، أو من قولهم رسم عليَّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعاً»[1].

وهذه المكاتبات من جنس التقاليد، إلا أنّها تختلف عنها في أمور، فيذكر العمري إنها «تكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بولاية»[2] ويرى القلقشندي أنّها تختص بنوّاب القلاع المنصورة، وأمر العربان وشادّي البريد، ومقدمي الألوف والطبلخانات»[3].

ومن الناحية الشكلية تختلف المراسيم عن التقاليد في عدّة أمور، منها:

يُقتصر في طرة المرسوم على «الأميري» دون «الكبيري»، ويقال: «أنْ يستقر»، وليس «أن يفوّض» ، ولا أن يقال «على أجمل العوائد وأتم القواعد»، بل يقال: «على عادة من تقدمه وقاعدته»، ولا يقال في الصدر «أما بعد»، بل «وبعد»[4].

ويورد القلقشندي رأياً لصاحب التثقيف[*] مفاده أنّ المراسيم لا تختلف عن التقاليد إلا في أمرين: إنّها لا تكتب إلا في قطع النصف أو الثلث، وثانيها لا يقال «تقليد شريف»، بل «مرسوم شريف»[5].

وللصفدي مرسوّم كتبه عن تنكز، نائب الشام بتولية الأمير أرغون نيابة بعلبك، ومنه : «رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني المالكي الناصري، لا زالت أوامره بالسيف ماضية، وبحدّ حجّته قاضية، أن يفوّض إليه نيابة بعلبك المحروسة والبقاعين، على عادة

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص١٠٧.

(٢) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٣.

(٣) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ١٠٧-١٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١١، ١٠٧.

(*) تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش، انظر القلقشندي، ١٠٧/١١.

(٥) المصدر نفسه، ١٠٧/١١.

من تقدمه في ذلك وقاعدته»[1].

وفي الجزء المتقدم من المرسوم، نلحظ الشبه بين التقليد والمرسوم ، فقد استخدم الصفدي عبارة أن يفوّض التي يرى القلقشندي إنّها خاصة بالتقليد، ولكن في الجزء نفسه نقرأ عبارة «على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته»، وهذه العبارة خاصة بالمرسوم كما تقدم ، لذا نقول إنّه من الصعوبة بمكان أن تضع حدوداً فاصلةً بين المرسوم والتقليد من حيث الشكل المتبّع في كتابته، ولعلّ الصواب ما ذكره صاحب التثقيف عندما جعل الفرق في نوعيّة الورق المستخدم والعنوان.

وللصفدي مرسومٌ كتبه عن السلطان القرمشي بن أقطون بنيابة قلعة صفد، ومنه نورد:

«فليجهد في مراعاة أحوالها، وتفقُّد مباشريها ورجالها، ورمِّ ما تشعّث من بنائها، وإصلاح ما تحتاج إليه في ربعها وفنائها، فإنّ لها منه أيام والده المرحوم إيثاراً، وله في عمارتها آثاراً، فليجرها على ما عهدتْ ، وليزكّها فيما له شهدتْ، ويبذل الجهد في تشييدها، ودوام تحصينها بالرجال وتخليدها، وتمثير حواصلها بالسلاح والعُدد والغلال. . . »[2].

وكما هو معهود في التقاليد والتواقيع بأمر الوصيّة ، فكذلك المراسيم، فهذه مجموعة من الوصايا التي حريّ الأخذ بها، فعليه أن يجهد نفسه في تتبع كلّ ما يجري في تلك الولاية، من رعايا ومستخدمين، وفوق ذلك عليه إصلاح شأنها، وتوفير كل ما يلزم من أمورٍ لحمايتها، من رجال وعتاد، فالحصون الرجال لا غيرها.

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ المراسيم لا تختلف كثيراً عن التقاليد والتواقيع ، فجميعها رسائل تصدر عن ديوان الإنشاء، وما الفروق البسيطة التي تميزها عن بعضها إلا دليلٌ على التنظيم الدقيق، الذي أمتاز به ديوان الإنشاء المملوكي.

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٤٦٤-٤٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ٤/١٠٨-١٠٩.

المناشير:

«جمع منشور، والمنشور في أصل اللغة خلاف المطويّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وكتابٍ مسطورٍ في رَقٍّ منشورٍ﴾(*) وقد اصطلح كتاب العصر المملوكي على تسميّة جميع ما يكتب في الاقطاعات ، من عاليها ودانيها للأفراد ، والجند ، والعربان، والتركمان، وغيرهم مناشير(١).

ومن خاصيتها كما يخبر القلقشندي أنّها لا تكتب إلا عن السلطان ، مشمولة بخطه(٢)، ويبيّن العمري الوجوه التي تكتب فيها هذه المناشير: «فهي ما يكتب للأمراء، والجند، بما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطاع»(٣).

والمناشير من الرسائل التي يصدرها الديوان إلا أن لها خصوصية تميزها عن غيرها، فهي مختصرة، ولا تحوي وصايا، وهذه عبارة العمري في هذا الشأن ، حيث يقول: «وشأنه شأن ما تقدم، إلا أنّ المناشير أخصر، ولا وصايا فيها»(٤).

ومن الميزات أيضاً التي تميّزت بها المناشير كما يشير العمري بقوله: «والعادة الجارية في المصطلح أن يقال: خرج الأمر الشريف، سواء كان في أثناء المنشور، أو ابتدائه»(٥) وهي كذلك كما يصفها «لا يُكتب في أواخرها المستند، ويكتب كاتب الإنشاء إلى أن ينتهي إلى قوله أن يجري في إقطاعه»(٦).

وقد تتميز المناشير عن بعضها، وذلك حسب ما توجّه إليه «فقد جرت العادة أن يكتب للمناشير الكبار، لمقدمي الألون والطبلخانات- طغرا بالألقاب السلطانية، تكون

(*) سورة الطور، آية ٢، ٣.

(١) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٦٢/١٣

(٢) انظر المصدر نفسه، ١٦/١٣.

(٣) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٦) المصدر نفسه، ص١١٨.

فوق وصل بياض فوق البسملة، ولهذا الطغرا رجل مفرد لعملها وتحصيلها بالديوان، فإذا كتب الكاتب منشوراً أخذ من تلك الطغراوات(*)، وألصق فيما كتب به»[1].

وللصفدي منشورٌ كتبه عن السلطان للأمير ناصر الدين جنكلي بأمرة أحد وأربعين رمحاً، ومن ذلك «وكان المجلس السامي الأميري، وألقابه الناصري ونعوته محمد بن الجناب العالي الأميري البدري، محمد بن البابا الناصري، من قوم ندعوهم فيلبّون إلى طاعتنا مسرعين، ونرجو لفتاهم كمال المائة فإنه قد تجاوز حدّ الأربعين، فهم أبطالٌ تفْرق الأسود الغُلب من وثباتها وثباتها، وفرسانٌ قوائمُ خيلهم صوالج تلعب من رؤوس العدى بكراتها في كرّاتها ، وشجعان ألفوا مقاعد الخيل فكأنهم ولدوا على صهواتها، وأمراء زانوا مواكبنا السعيدة التي لا تخرج الأقمار عن هالاتها»[2].

وبما أن المنشور يخصّ إمرة الجند، فهذا يتطلب من الكاتب إبراز صفات الأمير، التي تؤهله لإمرة ذلك الجند، فهو سريع إلى من دعاه، شجاع من قوم شجعان، لذا فقد رضع العزّ في مهده، وقد عُرف قومه بالغارة على الأعداء ، فمجالسهم صهواتُ الخيل، دائبو الكرّ والفر، لذا فقد استحق إمرة هذا العدد من الجنود «وقد اقتضت آراؤنا الشريفة تغيير إقطاعه ليتقوى حزبه على الحرب ، وينتفي من يكون أمامه من أبناء الطعن والضرب، وتمرح به كُمت(**) الجياد في الأرسان، وتُشاهد في مقامات حَربه مقاتل الفرسان»[3] والمنشور كما تقدم في تعريفه يخصّ الإقطاعات، فلذا جاءت عبارة الصفدي: «اقتضت آراؤنا الشريفة تغيير إقطاعه ليقوى حزبه على الحرب»[4] لتبرهن على

(*) طغرا: علامة تشمل على الألقاب السلطانية وتلصق بأعلى المناشير بين الطرة والبسملة- القلقشندي، صبح الاعشى١/ ٥٥-٥٦.

(١) المصدر السابق، ص١١٨-١١٩.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤/٣٨٦-٣٨٧.

(**) الكُميت من الخيل ليس بأشقر ولاأدهم والكميت للذكر والأنثى سواء (ابن منظور، مادة كمت).

(٣) المصدر نفسه، ٤/٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ٤/٣٨٧.

مدى دقّة الكتابة الديوانية، التي تمثّل الجانب الرسمي المنظّم في زمن الكاتب، وكما هو مقرر للمنشور، كما يورد العمري. . .«ولا وصايا فيها»[1] جاء هذا المنشور، فقد ختمه الصفدي، بعبارة: «فلذلك خرج الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري -أعلاه الله تعالى وشرّفه- أن يجري في إقطاعه»[2].

وبعبارة مجملة يمكن القول إنّ الرسائل الديوانية تُعدُّ نافذةً مطلّة على الحياة الإدارية والسياسية، والاقتصادية ، والثقافية، والاجتماعية في الدولة المملوكية ، كون تلك الرسائل تعالج هذه الأمور مجتمعة، وفوق ذلك تشير الفروق الدقيقة في إنشاء مثل تلك الرسائل إلى دقّة النظام المتبع في ديوان الإنشاء، ويعزي عمر باشا ازدهار هذه الرسائل إلى كونها لغة التخاطب بين الحكّام وعمالهم ونوابهم، وإلى الحوادث التي مرت على البلاد، إضافة إلى تنظيم حياة الناس[3].

---

(٢) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، ص١١٧.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣٨٨/٤.

(٤) انظر باشا، **أدب الدول المتتبعة**، ص٧٩٣.

البشارات:

البشارات من أطرف رسائل الديوان كما يقول محمود رزق، لما يتاح فيها للكاتب من ألوان الوصف، والمبالغة فهو حرّ العنان طليق الخطام[1].

ويرى محمد الدروبي إنّها غالباً ما ترتبط بمناسبة معيّنة[2]، وكانت تكتب في مناسبات عديدة كتحرك ركب السلطان، أو عندما يهبّ السلطان بجنوده غازياً، وعند فيضان النيل، ووفائه، وكسر خليجه، وعند ولادة مولود للسلطان[3].

وحتى تتخذ هذه الرسائل الصّفة العامة، يجب أن تكتب بصفة العموم، لكي لا يقتصر أثرها على طائفة مخصوصة[4]، وتُعدُّ هذه من الرسائل الديوانية الرسمية، وذلك لصدورها عن الديوان فهي تتخذ الطابع الرسمي.

وقد تتداخل هذه الرسائل برسائل التهنئة ، لذا قصرتُ حديثي في رسائل الصفدي على بشارات النيل، التي أكثر الكاتب من إنشائها ، فضلاً عن عدم تداخلها مع الرسائل الأخرى كالتهنئة.

«جرت العادة كل سنة إذا وفّى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد، لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة ، ولم يزل كتّاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة»[5] كما يخبر السيوطي.

ويذكر القلقشندي أنّ «هذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزّمان، وهلمّ جرا

---

(١) انظر سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص١٤٣.

(٢) الدروبي، محمد محمود، **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٦٠.

(٣) انظر سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص١٤٣، ١٤٤.

(٤) انظر الدروبي، **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص٦٠.

(٥) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج٢، ص٣٦٦.

يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال، اهتماماً بشأن النيل»[1].

ويشير سعيد عاشور إلى أنّ هناك احتفالاً سنوياً حرص المصريون بجميع طوائفهم على إحيائه ، منذ فجر التاريخ حتى اليوم، وهو الاحتفال بوفاء النيل، وقد جرت العادة في الدولة المملوكية أنّ ابن السلطان هو الذي يكسر الخليج بعد اليوم التالي لوفاء النيل[2].

وللصفدي في هذه المناسبة العديد من الرسائل التي أنشأها ، وهو يعمل في ديوان الإنشاء، ومنها:

«هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تخصه بسلام يرقّ كالماء انسجاماً، ويروق كالزهر ابتساماً وتتحفه بثناء جعل المسك له ختاماً، وضرب له على الرياض الناتجة خياماً وتقصّ عليه من نبأ النيل الذي خصّ الله الديار المصرية بوفادة وفائه، وأغنى قُطرها عن القطر فلم تحتج إلى مدّ كافه وفائه، ونزّه عن فئة الغمام الذي إن جاد فلا بدّ له من شهقة رعده ودمعة بكائه ، فهي البلاد التي لا يذمّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يُزمّ للقطار في بقعتها قطار ، ولا ترمد الأنواء فيها عيون النّوار، ولا تشيب بالثلوج فيها مفارق الطّرق ورؤوس الجبال، ولا تبيت البروق ساهرة لمنع العيون من تعهد الخيال»[3].

وهذه الرسائل يكون الكاتب في إنشائها ملك نفسه ، لا يقيده قيد، ولا يحدّه حادّ، بل يرخي لقلمه العنان فهي أقرب إلى رسائل الوصف ، ففي الجزء المتقدم من البشارة ، عرض الصفدي لخصائص أرض مصر المناخية، ولكنْ بأسلوب الأديب الذي لا يسجل أحداثاً مجردة ، بل يضفي عليها من خياله.

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٨/ ٣٣٢.

(٢) انظر عاشور، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، ١٩٧، ١٩٩.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر** ، ٣/ ٦٢٣-٦٢٤.

ويشير الصفدي في بشارته إلى حالة الفرح الذي يكتنف الناس، إذا ما بلغ المقياس الحد المطلوب، وهو ستة عشر ذراعاً، ومن صور هذا الفرح عادة ركوب الميدان عند وفاء النيل في كلّ سنة، وهو يتكرر في كلّ سنة، ويكتب إلى جميع النّواب ، الأكابر والأصاغر، وتجهز إلي أكابر النّواب خيول صُحبة المثال الشريف، ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب بالكرة[1].

«حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخيرات سراعاً، وفتح أبواب الرحمة بتخليقه[*]، وجدّ في طلب تخليقه، وتضرع بمدّ ذراعيه إلينا، وسلّم عند الوفا بأصابعه علينا، ونشر على ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره»[2].

ويمضي الصفدي في تصوير حركة المياه عند كسر الخليج، فكأنَّ الماء لجة محيط يأخذ ما في طريقه من كثبان، أو جيش يدخل في كل منزل لسلبه، يعلوه الزَّبد الذي يحجب ما بداخله، « فكُسر الخليج، وقد كاد يعلوه فرح موجه، ويهيل كثيب سُدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأنَّ له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسيّ قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته، ولولاه ظهرت في باطنه من بدور أُناسه أشعتها المعكوسة. . . »[3].

ويأخذ الصفدي في تصوير حال الناس بعد مشاهدتهم لكسر الخليج، وهم يرفعون أكف الضراعة والشكر لله سبحانه ، على هذه النّعمة التي أسبغها عليهم، فيقول: «وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه»[4].

ويبشّر الصفدي بهذه الرسالة الجناب العالي، فيقول: «فليأخذ الجناب العالي حظه

---

(١) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٨/ ٣٣٦.

(*) اخلولق السحاب: استوى وارتقت جوانبه وصار خليقاً للمطر (ابن منظور، لسان العرب، مادة خلق). والتخليق مقياس النيل عند وفائه: انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ٣/ ٥٩٠.

(٢) الصفدي ، **أعيان العصر** ٣/ ٦٢٤-٦٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٦٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٦٢٥.

من هذه البشرى، التي جاءت بالمنّ والمنع»[1].

ويأمل من الجناب العالي أن يخفف على العامة في هذا الموسم من جباية الضرائب «وليتقدم الجناب العالي بالأ يحرّك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعطِ كلَّ عاملٍ في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في إسقاط الجباية خيانة»[2].

وينهي الصفدي كتابه بتقديم البشرى للجناب العالي، بهذه المناسبة «والله -تعالى- يديم الجناب العالي لقصّ الأنباء الحسنة عليه، ويمتّعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه، بمنّه وكرمه»[3].

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٦٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٦٢٥-٦٢٦.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٦٢٦.

الرسائل الإخوانية:

كان الصفدي كثير الصداقات ، رضي الخلق، «حسن المعاشرة جميل المروءة، وكان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم»[1]، وكان كثير الرحلة ، ولما كان كذلك توجّب عليه مشاركة أصدقائه مشاعرهم وعواطفهم، في فرحهم ، وترحهم في سرورهم وحزنهم، ويحنُّ لهم حال رحيله عنهم، ورحيلهم عنه، يستبشر حال عودته إليهم ، أو عودتهم إليه.

وتسمى مثل هذه الرسائل، بالرسائل الإخوانية ، فهي تسجيلٌ لعواطف ومشاعر وأحاسيس الكاتب، يودعها تلك الكتب ، ويرسلها إلى أصدقائه.

وقد كان لكثيرمن الأدباء والكتاب آراءٌ في مثل إنشاء تلك الرسائل ، فيرى القلقشندي أنّها «لها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها، والكاتب إذا كان ماهراً أغرب معانيها، ولطّف مبانيها، وتسهّل له فيها ما لا يكاد أن يتسهّل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير، ولا تتجاوز»[2] فهي محررة من القيود التي كبّلت الرسائل الديوانية، فهي تعطي الكاتب الحرية في التصرف، والتفنن في عباراتها، والتأنّق في صياغتها، حسب الغرض التي أنشئت من أجله.

ويرى محمود سليم أنّها مظهرٌ من مظاهر الحياة الأدبية، وبعض ميادين الكتابة الفنية في عصر المماليك ، وقد تبادل كُتّاب عصر المماليك هذه الرسائل، ولم يقفوا عند ما بلغه الأسلاف، وقد أتوا فيها بالعجب العجاب، وربما أتخذها بعض الكتّاب لامتحان القريحة، بدون أن يكون لها سببٌ، أو واقعة[3].

وللشهاب محمود الحلبي، رأيٌ في تلك الرسائل مفاده أن «الكتب الإخوانية ، والكتب التي تُعمل رياضة للخاطر، فيما يقلُّ وقوعه لاحتمال أن يقع ، أو فيما تمتحن

---

(١) الشوكاني، **البدر الطالع**، ج٢، ٢٤٣.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣/٩.

(٣) انظر سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ١٥٦.

به قوة القريحة، ويعتبر به تصرف الفطنة، ويسبر به غور الذهن، ويَعلم به استعداد الفكر، فإن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان، يُخلّى بينه وبين قوّته فيه ، أو ضعفه لكن على كل حالٍ يراعى كلّ مقام بحسبه»[1].

وللصفدي العديد من الرسائل الإخوانية، التي أودعها كتبه، وسجّل فيها مشاعره، وعواطفه ، وشوقه إلى أصدقائه، ومعارفه، ولّما كان الصفدي كثير الرحلة، لذا فقد ترك في كلّ بلدٍ زارها صديقاً بل أصدقاء، ولهذا غلبت على رسائله سمة الشوق والحنين حيث إنّه ألّف كتاباً من هذا القبيل، أسماه ألحان السواجع بين البادي والمراجع، وجعل موضوعه تلك الرسائل التي تبادلها مع أعيان عصره، وعلى هذا جعلت أول رسائله الإخوانية.

رسائل الشوق والحنين:

الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشيء، والشوق حركة الهوى»[2]، والحنين : الشوق ، وتوقان النفس[3]. من هنا يمكن تعريف رسائل الشوق والحنين بأنها تلك الرسائل التي يسجّل فيها الكاتب لواعج وشدّة شوقه، وحاجة نفسه إلى تذكّر الأيام السّالفة التي قضاها إلى جانب أصدقائه، فهو دائم التذكّر والتوجس، لا يهدأ له بالٌ، ولا ترقى له عبرة، يشكو من الزّمان، ويحمّله كلَّ تبعة.

ومن رسائل الشوق تلك الرسالة التي بعثها الصفدي إلى ابن سيد الناس، عندما ارتحل الصفدي إلى دمشق ، وكانت بينه وبين ابن سيد الناس صداقة حميمة، فبدأ تلك الرسالة بقصيدة طويلة ، تحدث فيها عن تقديره، وحبه وحُسن صداقته، وكريم خصاله، ولطف معاملته، وجليل علومه، ومنها:

---

(١) الحلبي، **حسن التوسل**، ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، «شوق» دار صادر.

(٣) المصدر نفسه، «حنن».

«ويصف أشواقه التي لا يعلم قرارها إلا الذي أوجبها وقررها ، ولا يدري قدرها إلا الذي حكم بها وقدّرها، ولا يعرف ألمها إلا القلب الذي لمها، ولا يجبر ضيمها إلا الفؤاد الذي ضمّها، فهي الأشواق التي استعارت الجحيمُ استعارها، ونفت عن الجفون قرّتها وعن الجوانح قرارها، وأعدمت النفس في الصباح صلاحها، وفي المساء مسارّها»[1].

فالصفدي يصف أشواقه التي لم يعد يحتمّل ألمها ، فهي أشدّ استعاراً من الجحيم، بل استعارت الجحيمُ استعارها، ومنعت عيونه عن لذّة النوم، بل ملك الشوق عليه نفسه في حركته وسكونه.

ويصور الصفدي شوقه إلى البلاد التي توطدت العلاقة مع صديقه فيها، فيقول: «فآها على الديار المصرية وأوقاتها، وسقياً لمعاهد أنسها لنفسها ولذّاتها ، ورعياً لتلك المنازل التي لا تخرج الأقمار عن هالاتها»[2].

ويمنّي الصفدي نفسه بالعودة إلى تلك الديار، ويشعر بنار الغربة التي كوته فيقول: «. . . وما أقول بل ما أنتظر إلا نظرة شهابية، ولا أترقّب إلا همّة عدويّة عُمريّة، تنقذني من نار هذه الغربة، وتعيدني إلى خير عالم وألطف تربة، وتتعطّف على مَنْ غدرتْ به أيامُه ولياليه»[3].

وللصفدي رسالة شوق بعثها إلى أثير الدين ابي حيّان، من الرحبة سنة تسعٍ وعشرين وسبعمائة، وهو في القاهرة، بدأ الصفدي رسالته بأبياتٍ شعرية صور فيها حنينه وأساه، وشدّة شوقه إلى أثير الدين ، وبين فيها فضله عليه، حيث إنّه شيخ الصفدي في النحو.

وقد صور الصفدي الألم والأسى الذي بين جوانحه لصديقه وشيخه بأنّه قد أفنى

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ٥/ ٢٢٥.

جسده، وأدمعه دماً ، مما جعله يكتب بمدادٍ من دمٍ، على تلك الصحف التي حملت أشواقه، «يقبّل الأرض وينهي ما هو عليه من الأشواق التي برّحت بالمها، وأجرت الدموع دماً، وهذه الطرس الأحمر يشهد بدمها، وأربت بسحّها على السحائب وأين دوام هذه من ديمها، وفرقت الأوصال على السقم لوجود عدمها»[1].

ويتذكر الصفدي الولاء والأيام التي خلت بأنسها وأنيسها، وحُسن عشرة ذلك الشيخ ، حتى أصبح الصفدي يصدح كالحمائم على كل غصن، ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم «ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الروض الحمائم، ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم، وثناؤه يتضوّع كالزهر الكمائم، ويتنسّم تنسّم هامات الرُّبا إذا لبستْ من الربيع ملونات العمائم»[2].

وكتب الصفدي رسالة يتشوق فيها إلى القاضي تاج الدين البارنباري بعد خروج الصفدي من مصر إلى الرحبة كاتباً للدرج، سطّر الصفدي في تلك الرسالة عبراته، وحنينه، وشوقه، الذي قد ضاقت به الرحبة على سعتها، وقد أنفد هذا الشوق صبره، وأوغر صدره، وتذكر الأيام الخوالي، حتى أصبحت تلك الذكريات أجمل من النسيب، فيقول فيها: «وينهي بعد رفع الدعاء ، وحمل لواء الولاء، وإشادة بناء الثناء، أن المملوك سطّرها وشوقه قد ضاقت به الرحبة، وأغار على مثاقيل الصبر، فما ترك عند حبّة القلب حبّة، وذكّره الأيام السالفة حتى عاد نسيبه بها أعظم نسبه»[3].

ومن رسائل الشوق رسالة أنشأها الصفدي يحنُّ فيها إلي صديقه علاء الدين بيبرس، عندما توجه الأخير إلى حلب من دمشق، فبدأها ببيت من الشعر:

«لقد أوحشْتَ أهلَ الشامِ حتى سلبْتَ ربوعَها ثوبَ البهاءِ»

يقبل الأوض ويشكو حظّه من الأيام ، وما يجده لهذه الحادثة من الألام، وما

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٣٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ٥/ ١٧٣.

يُجرّعه من الغصص لفراق مولانا الذي آنس مقامه حلب، وأوحش فراقه الشام:

وإذا تأملت البلاد وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

نعم يا مولانا ، لقد شقيتْ دمشق ببعدك عنها، وسعدت حلب بقربك منها، وما يقول الملوك إلا كأن الله تعالى قد كمّل محاسنها بحلولك، وأطلع الأمن فيها بنزولك وكاثر أنهارها بما تجريه المكارم فيها سيولك، وفاخر أهلّة أفقها بما تؤثّره في طُرقها حوافر خيولك»[1].

ولّما كان علاء الدين أميراً، ولم يكن من طبقة الصفدي الاجتماعية، أخذت تلك الرسالة بعض قيود الرسائل الديوانية، فقد بدأت بعبارة يقبل الأرض، ومهما يكن من أمر فإننا نحسُّ بالفرق في العبارات التي تحملها هذه الرسالة عن غيرها من رسائل الشوق السابقة، فقد أكثر من عبارات المدح والثناء التي تليق به، فقد خسرته الديار التي ارتحل عنها، وسعدت بجواره البلاد التي سكنها، ولقد طغى كرمه وما يجريه من عطاء على أنهار تلك البلاد، ولم نشعر بعبارات الأسى والشوق التي كان يظهرها الصفدي في رسائله السابقة، واكتفى بالحنين إلى مجالسه وداره التي لم تعد يروق للمرء المرور ببابها.

وتتسم رسائل الشوق بالحنين إلى مرابع الأصدقاء، وتصوير الألم والحزن اللذين ينتابان المرسل حال غربته عن أصدقائه، ويسجّل فيها ما يلاقيه من أسى، ووحشة الغربة، وفراق الصديق، ويتذكر فيها الأيام الخوالي، وحُسن العِشرة، ولطف المعاملة التي طالما نَعِم بها إلى جوار رفاقه، فتنهلّ دموعه، لتشعل النار بين جوانحه ، التي لا يستطيع إطفاءَها.

---

(١) المصدر السابق، ٣/٣١٨-٣١٩.

رسائل التهنئة:

من الرسائل التي يكثر تداولها بين الأصدقاء والأحباب، وهذا راجعٌ إلى كثرة الدواعي التي تتطلّبها فالحياة الاجتماعية ملأى بالمناسبات اليومية والسنوية وغيرها، والتي لا يجد الصديق بدّاً من كتابة رسالة إلى صديقه.

وقد أكثر الصفدي من رسائل التهنئة، وفي مختلف الموضوعات التي دعت إلى كتابتها، وفي رسائل التهنئة يأخذ المهنّي في الإفصاح عن عواطفه، ومشاعره، وأحاسيسه السعيدة تجاه المهنّى.

وهذه رسالةُ تهنئةٍ بعثها الصفدي عن الأمير سيف الدين تنكز إلى بكتمر الساقي، يهنئه بمنح ابنه إمرة: وفي هذه الرسالة يجعل الصفدي المهنَّى يستحق تقدمة الألف، وهو فرد زمانه ، ويتمنى الصفدي لو شهد ذلك اليوم، وشارك في موسم الفرح المؤبّد، على أنه غائب الجسد، حاضر الروح «والله تعالى يديم هذه الأيام الشريفة التي أرت مولانا فيه ما سرّه، وبلغت به رتبةً ذُبالها النجوم، وطريقها المجرة وتقرّ به عين مولانا الكريمة، فمثل هذا الولد من يكون للقلب قراراً، وللعيون قرّة، وكان المملوك يودّ لو كان حاضراً في ذلك اليوم الذي هو تاريخ الهناء، وموسم الفرح المؤبّد على مرّ الآناء، وإن كان المملوك قد غاب بقالبه، فقد حضره بقلبه، وعرف قيمة إيجابه وسلبه»[1].

وبعد تقديم التهنئة يدعو الله سبحانه أن تدوم تلك الأيام السعيدة على ذلك الشخص، في ظل مَنْ ولاه تلك الإمرة «والله تعالى يديم لمولانا وله وللمملوك حياة مولانا السلطان، خلّد الله ملكه، وجعل أقطار الأرض ملكه، بمنه وكرمه»[2].

ومن رسائل التهنئة ، ما كتبه الصفدي عن الأمير سيف الدين تنكز، يهنئ فيها الأمير طينال الأشرفي بعد قدومه من صيد:

---

(١) المصدر السابق، ١/ ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ١٨٦.

ففي هذه الرسالة يقدم الصفدي التهنئة التي تليق بالمقام، والموضوع، ويتمنى أن تدوم أيام المسرّات إليه، وأن يبقى زمنه كله ربيعاً، وأن يظفره في كلّ مرةٍ من الصيد ما يُبهج نفسه «وجمع شمل المسرّات إليه جميعاً، وجعل حرمه على الخطوات محرماً، وزمنه كلّه ربيعاً، وأظفره من الصيد بما يُلقى لديه من الدّوّ صريعاً، ويخرُّ له من الجوّ صريعاً»[1].

ويشكر الله سبحانه وتعالى على عودته إلى بلاده، وقرار قلبه وقرة عينه سالماً، بعد أن نال ما نال من الصيد، الذي أغنى الوحوش عن مهمات صيدها، بكثرة ما أُلقي من الصيد في تلك الفلاة «بعد أن عُرضت صيوده على مواقد النيران، وضربت أطيارها قباب أشلائها على طريق الوحش تتقارع منها على قرى الضيفان، ونُثر على سندس الربيع من ريشها الأزرق ياقوت ومن دمها الأحمر مرجان، وغدت وجنة الأرض وفمها من الدماء مضرّج ومن الريش خيلان»[2].

وبعد أن يصف هذا المشهد الذي هو من خصوصيات رحلة الصيد، يدعو الله أن تكتمل هذه المسرات ، وتدوم تلك الأفراح، «فالله يكمل لمولانا المسرّة التامة، ويُبهج خاطره الكريم بأفراحه العامة للخاصة والعامة، ويجعل عداه في قبضة قنصه، ويُجرّع كلاً منهم كؤوس غُصصه»[3].

ومن رسائل التهنئة ما بعث بها الصفدي إلى عمر بن داود، يهنئه بمولود ذكر، وكعادة الصفدي يبدأ بالشعر ، فينظم مقطوعةً شعريةً يبشّر فيها عمر بن داود بهذا الولد الذي سيكون قرّة عينٍ لوالده، وللناس رمز أمل ورجاء، فلقد ترقّب الناس مولده بعيون تشفّها اللهفة، ويحدوها الفضل والعُلى، ومنها «يقبل الأرض وينهي أنه جلس بهذه البشرى على سرر السرور، والتحف منا بحبر الحبور، وملأ كفّه بالدرر من هذه

---

(١) المصدر السابق، ٢/ ٦٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٦٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٦٣٣.

الأفراح، وملأ طرفه بالبدور ونطّقته هذه المسرّات بالمحامد ، فارتجل وارتجز، وأمكنته الفرصة من التهاني»[1].

ففي هذه الفقرة ترى البشر يتهلل من حروف كلماتها، فهو موقف فرحٍ وسرورٍ، وهذه البشرى أنطقت المملوك بتلك المحامد، ومكنته من كتابة التهنئة ، كي يعبّر عن فرحه وسروره، ومشاركته المهنّى لذّاته ومسراته، وهذا المهنَّى من أهل بيت تقادم عزّه، وولادة مولود ذكر يعني دوام العزّ لهذا البيت، «وهل هذا إلا بيت تُمدّ في العلياء أطنابه ، وتُرفع في السيادة أعلامه، وقبابه، وتتسع لبني الآمال ساحاته ورحابه»[2].

ويصور الصفدي عواطفه ومشاعره في تلك الرسالة التي لم يتمكن أن يشافه المهنَّى بتلك الأحاسيس عن قرب ، ولكن يؤكّد له أنّه إن غاب جسماً ، فقد حضر روحاً، ويؤكّد بأن صاحب التهنئة ليثٌ وقد أشبل، وهو بحرٌ وقد مُدَّ بجدول «وما أقول إلا أنَّ مولانا ليثٌ قد أشبل، وبحر زخر لجّه حتى مُدَّ بجدول، ومن حرمان المملوك أنّه ما شافه السمع الكريم بالتهاني، ولا فاز برصد هذا الهلال كيف يترقّى إلى الإبدار»[3].

وينهي الصفدي رسالته بالدعاء بحفظ ذلك الولد، وجعله قرّة عين لوالده، وأن يهبه أمثاله من الولد «والله تعالى يمتع عينه الكريمة بهذه القُرة ، ويهبه أمثالها، حتى يرى في كلِّ ذرّة من الزمان دُرّة ، بمنه وكرمه»[4].

ومن خلال قراءة تلك الرسائل نلحظ أنَّ رسائل التهنئة تركّز على أمور منها: بيان موضوع هذه التهنئة، وإظهار الفرح والسرور والبهجة، والتمني لو تمكّن المهنِّي من مشاهدة الحدث عَيَاناً، والدعاء إلى المهنَّى بأن تبقى وتتمَّ له هذه المسرّات.

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٦١٦.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٦١٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٦١٧.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٦١٧.

رسائل المدح والشكر والسرور

المدح من الرسائل التي يُظهر فيها الكاتب فضل الممدوح ، وكريم خصاله، وللصفدي فيها باعٌ طويل، ففي مثل هذه الرسائل يبدي المادح شكره ، ومواطن النعمة التي أسبغها عليه الممدوح، ومن تلك الرسائل رسالة بعثها الصفدي إلى شهاب الدين القيسراني، ومنها «فالله يرزقنا معاشر الأرقاء شكر هذه النعمة التي أقمر بها ليل الأمل، والتحف الدهر منها برداء المحاسن واشتمل ، وانتشق خمائل فضلها من كانت الأيام أخرته حتى خمل، وانتصف فيها من كانت واقعته تذكّر الناس بأيام صفّين والجمل»[1].

ففي هذه الرسالة يُظهر الكاتب نفسه رقيقاً -من تواضعه- أمام الممدوح الذي حاز الشرف، حتى كان بدر ليلته، وأمل دهره، فلا يَسَعُ هذا الملوك إلا الشكر على تلك النعمة، ويأخذ الصفدي في فضائل الممدوح، ويخاطبه قائلاً: «فأنتم يا بني القيسراني فضلكم مثل جدكم خالد، ونجم من عاندكم هابط، ونجم سعودكم صاعد، وجنان الفضل تُرون فيها ﴿متكئين فيها على الآرائك﴾[*] وتحيتكم بها المحامد»[2].

ويمضي الصفدي في مدحه، ويُظهر خلال قومه من كرم وفضل على غيرهم، وقد نُسب إليهم العز والفخار كابراً عن كابر «كم قد تجمّل منكم منصب الصحابة بوزير، وكم جلس منكم كاتب سرّ بين يدي صاحب السرير، وكم حلّيتم بدرر إنشائكم جيد قاضٍ، وعنق أمير، وكم روى الإحسان منكم عن نافع، وابن كثير»[3].

الشكر:

«رقاع الشكر يجب أن تكون مودعةً من الإعتراف بأقدار المواهب، وكفاية

---

(١) المصدر السابق، ٥/٥٥٨.

(*) سورة يس، آية ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ٥/٥٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ٥/٥٥٩.

الاستقلال بحقوق النعم، والاضطلاع بحمل الأيادي والنهوض بأعباء الصنائع، وما يشحذ الهمم في الزيادة منها، ويوثق المصطنع بإفاضة الصّنع، ويعرب عن كريم سجية المحسن إليه»[1].

وللصفدي العديد من الرسائل في هذا الموضوع، وموضوعات الشكر كثيرة، ومنها رسالة بعثها الصفدي إلى نائب طرابلس يشكره على هدية، وهي ثوب صوفٍ أزرق مربع، في غاية الحسن، فبدأ الصفدي رسالته بتقديم الشكر الذي يليق بالمهدي «فوقف المملوك له قائماً، وقبّل شفة عنوانه اللعساء لاثماً، وتوهم أن هذا طيف خيال من فرحه وأنه كان حالماً، ووضعه على رأسه وعينيه، وفضّه، فقبّل الأرض وكرر ذلك، كأن مولانا أعزه الله حاضر، والمملوك بين يديه»[2].

ففي هذه الفقرة يتضح لنا قدر النائب، وكيفية مخاطبته، فيجب على الكاتب أن يراعي مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما، مما لا يُتسامح بمثله[3].

ومن جميل الخصال أن يذكر المقدم للشكر تأنقه، وتأنيه في اختيار عبارات الشكر، لتناسب المقام المشكور، وتبين من فضله الغامر الذي حفظ للملوك حقه «فإن المملوك ما توهم أن العبد يرعى له المولى حقوقه، ولا أن المملوك يجري بين أيديهم ذكر السوقة، ووصل ما تصدق به مولانا ملك الأمراء- أعز الله أنصاره- من الصوف الأزرق المربع»[4].

وبعد تقديم تحية الشكر وبيان جزيل العرفان، يشرع الكاتب في وصف تلك الهدية، التي يرى أنها لا مثيل لها، تعجز الألسن والأقلام عن وصفها، فيقول: ياله من

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٩/١٨٣.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٤٢٥.

(٣) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٩/٤.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٤٢٥.

مربع يودّ المملوك لو وصفه بألف مخمّس، وذي لون أزرق يحسن أن يكون سماء تتبرج فيها (الجواري الكنس)(*) ما أحسن لونه الأزرق، لأن البدر أهداه، وما أحكم نسجه، فإن صانعه أتقن ما ألحمه فيه وسداه. . .»[1].

وبعد الإنتهاء من وصف الهدية- الثوب- يثمن الكاتب للمهدي هذه العارفة، ويثني عليه بما هو أهله، ويدعو الله أن يعين المملوك على الشكر لهذه النعمة، «والله يوزع المملوك شكر هذه الصدقات، التي عم سحائبها وأغرق، وروى جودها عن نافع بن الأزرق، فقد نوهت بقدره، ونوعت له أسباب جبره، ويديم الله أيام مولانا ملك الأمراء لمماليك أبوابه وغلمانه»[2].

ومن رسالة شكر أخرى للصفدي، بعثها عن نائب دمشق، يشكر فيها نائب طرابلس على هدية، «فلثم المملوك منه موقع الاسم الكريم، وقبل منه خد كعاب وسالفة ريم، ووصل ما أنعم به من الهدية الكريمة»[3].

وأخذ الصفدي يسرد الحديث في وصف تلك الهدية، ويعلي من قدرها لتناسب قدر المهدي والمهدى إليه.

ومن رسائل السرور والفرح- والتي يظهر فيها الكاتب عواطفه ومشاعره تجاه من يوجه إليه تلك الرسالة، ما بعثها الصفدي عن تنكز، إلى الملك الأفضل، بعد رحيله من دمشق إلى مصر، فقد دبّج الصفدي في تلك الرسالة عبارات السرور، والفرح الغامر، والمرح، بوصول ركب الملك إلى مصر «ورد المثال العالي، يتضمن حركة الركاب الكريم، إلى الأبواب الشريفة، فكاد قلب المملوك لتلقيه يطير فرحاً، ويميد عطف الزمان ومن فيه مرحاً، ويكون يوم قدومه يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحىً»[4].

(*) سورة التكوير، آية ١٦.

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٤٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ٥/٤٢٦-٤٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ٥/٤٢٣-٤٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ٤/٣٢٩.

التعزية:-

يرى القلقشندي أن المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال، مما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر، والتسليم إلى الله جلت قدرته، وتسلية المعزَّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك مما ينتظم في هذا المعنى[1].

وعلى الكاتب أن يراعي فيها قدر المكتوب عنه، والمكتوب إليه[2]، وللصفدي تعزية في أخ منها «يقبل الأرض وينهي ما عنده من الألم الذي برّح، والسقم الذي جر ذيول الدمع على الخدود وجرّح، مما قدره الله تعالى من وفاة القاضي شهاب الدين:

سقته بألطف أندائها وأغزرها ساريات الغمام

إنّا لله وإنّا إليه راجعون»[3].

ففي هذه المقدمة يظهر الصفدي حزنه الشديد، وأساه العميق، ويشارك المعزَّى أحزانه، ويصف حالة الذهول التي أفزعته، وجعلته يسكب دمعه الذي جرّح خدوده، ولكن لا بد من الإمتثال لأمر الله، فيسترجع ويسلم بقدر الله، وبعد ذلك يواصل الصفدي وصفه لحالة الهلع الشديد التي أصابته عند سماعه النبأ، ويعود ويتذكر هيئة المتوفى «فيا أسفي على ذلك الوجه الملي بالملاحة، واللسان الذي طالما سرَّ العقول ببيانه فصاحت: يا ملك الفصاحة، واليد التي كم روّضت الطروس أقلامها، وأنشأت أسجاعاً لم تذكر معها بانات الحمى ولا حمامها»[4] ولا يملك إلا أن يوطّن نفسه على تحمّل تلك الرزيّة، ويدعو للمتوفى بالرحمة والمغفرة، «فرحم الله ذلك الوجه وبلّغه ما يرجوه،

---

(١) انظر القلقشندي، ٩/ ٨٢.

(٢) انظر المصدر نفسه، ٩/ ٨٢.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ١/ ٤٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٢.

وضوّاه بالمغفرة يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه»[1].

ويعود الصفدي ليسرد فضائل ذلك الشخص، فقد نعاه المجد المؤثّل، وبكته الأداب، وناح عليه البديع والجاحظ، « لقد فقد المجد المؤثّل منه ركناً تتكثّر به الجبال فما تقلّه ولا تستقله، وعدمت الأداب منه بارعاً لو عاصره الجاحظ ما كان له جاحداً، أو البديع علم أنّ ما فُضَّ له فضله»[2].

وبعد تعداد مناقبة الجليلة يخفّف الصفدي على ذوي المتوفىّ من هول الصدمة ويرى أنَّ أخاه سيكون له خير خلف« وما يقول المملوك في البيت الكريم، إلا إنْ كان قد غاب بدره وأفل شهابه، أو غاض قطره وتقشّع سحابه فإنَّ نيّره الأعظم باقٍ في أوجه، وبحره الزاخر متلاطم في موجه، وفي بقاء مولانا خَلَفٌ عمّن سلف، وعِوَضٌ عمّا انهدم ركنه وانقضَّ، وجبرٌ لمن عُدم الجلد والصبر، و الله يمتّع المسلمين بحياته»[3].

ففي الفقرة السابقة تتجلى التعزية في طلب الصبر والجلد عند المصيبة، ويظهر فيها عزاء الصفدي لنفسه قبل ذوي الفقيد، ولعله مبالغة في الحزن يظهرها الصفدي.

ويكمن في رسالة التعزية السابقة ثلاث أفكار: فكرة التفجّع والبكاء والعويل، وفكرة تعداد مناقب الميت، وفكرة الحث على الصبر والجَلَد عند المصيبة.

وله رسالة تعزية بعثها لتاج الدين السبكي يعزيه بوفاة والده تقي الدين السبكي «يقبل الأرض وينهي ما عنده من الألم الذي أنكى، والحادث الذي ما يحيك في خلد ذي جلد ولا يُحكى، والمصاب الذي عقد المناحات له بالمناجات فوقف واستوقف له وبكى واستبكى:

ولو يغني البكا أو ردَّ ميتاً بكيت فلم يساجلني الغمامُ»[4].

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٤٥٣.

وفيها يصوّر الكاتب حزنه الشديد على فقد المتوفّى، ويضمّن تعزيته بالبيت السابق الذي يحمل معنى التخفيف لهذه الصدمة، فالبكاء والتفجّع والنواح لا يرجع الميت أبداً.

ويأخذ الصفدي في بيان مناقبه العظيمة، كونه كان من أشهر شيوخه، ويشارك الصفدي المعزّى أحزانه في هذه النازلة، بل يشارك المعزّى الناسُ جميعاً «ويقسم الملوك أنَّ مولانا وأخاه أدام الله أيامهما ما انفردا بهذه الرزية، ولا ابتليا دون الناس بهذه البلية»[1].

ويدعو الكاتب الله أن يلهم ذويه والناس عامةً الصبر على تلك الرزية، وفقد ذلك الشيخ الذي فقدت القلوب رمقها بموته، «فالله يعين على ما أبلى ، ويمسك رمق القلوب فإنها عُريت من جُبّة الصبر وما يطيق من الأحزان نبلا، وما بقي غير الأخذ بالسنة في الصبر، والتمسك بآثار السلف الصالح ممن أودع أحبابه القبر»[2].

وفي الفقرة السابقة تظهر التعزية والتأسي بسيّد البشرية، النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم فعند ذكر سيرة النبي (ﷺ) وما فارق من أبناءٍ وأقرباءَ وصحابة له أجلاء ، فصبر واحتسب ، وكذلك السلف الصالح -تخفُّ أحزانه وتهدأ نفسه، ومن وسائل تخفيف الصدمة على المعزَّى، وضع بارقة أمل فيما ترك ذلك المتوفى، «ويقسم الملوك ثانياً أنَّ فيكما خلفاً باقياً ، وكلاكما -كلاكما الله- نيّرٌ أصبح في درجات من درج السعد راقياً، وما السلوة إلا بهذا وإلاّ كانت قلوب الأولياء قد أمست جذاذاً»[3].

ويظهر في هذا اللون من الرسائل المبالغة الشديدة في التفجّع والبكاء والعويل، قد تتجاوز فعل الفاقد لذويه، ولا يرى الباحث مبرراً لذلك سوى إبراز مقدرة الكاتب على امتلاك زمام تلك المكاتبات وغيرها.

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٤٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٤٥٤.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٤٥٤.

أجوبة التعازي:

«أجوبة التعازي يجب أن تبنى على وقوف المعزَّى على كتاب المعزِّى ، وأنَّ إرشاده نقع غلَّته، ووعظه نفع علّته، وتبصّره سكّن أواره، وتذكيره أخمد ناره، وتنبهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً، وهدى إلى الصبر ذاهلاً، وحسّن عندالرزية بعد جهامتها، ودمّث نفسه للمصيبة بعد فدامتها، فسلّم لله تعالى متأدباً بأدبه، وعمل بالحكم مقتدياً بمذهبه، وغالب الرّزء بالعزم، وأخذ فيه بالحزم، وسأل الله تعالى أن يحسن له العوض في ادّه، ويجعله له خلفاً ممن أصيب بفقده»[1].

ومن كتاب للصفدي في جواب عن عزاء على لسان الملك الصالح اسماعيل:

«فامّا العزاء بأخيكم(*) الوالد -قدس الله روحه، وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفنا بعده -فلنا برسول الله (ﷺ) أسوة حسنة ، ولولا الوثوق بأنَّه في عدّه الشُّهداء ، ما رأى القلب قراره، ولا رأى الطرف سنة، عاش سعيداً يملك الأرض، ومات شهيداً يفوز بالجنة يوم العرض ، قد خلّد الله ذكره يسير مسير الشمس في الأفاق، ويوقف على نضارة حدائقه نظرات الأحداق، وورثنا منه حسن الإخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم»[2].

ففي الفقرة السابقة يُظهر الكاتب أثر كتاب التعزية في نفس المعزَّى ، فقد تأسّى برسول الله (ﷺ) وزاد قلبه طمأنينة نيل المتوفّى للشهادة، وإنّه من أصحاب النعيم في الآخرة.

وفي مثل هذه الرسائل يخبر المعزَّى بوصول كتاب التعزية ، وإنّ هذه التعزية قد

---

(١) القلقشندي، ٩٩/٩.

(*) يشير إلى والده السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين الصالحي .

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤٠٠/٣-٤٠١.

أخذ بنصحها وأيقظت فيه روح التأسي، وذكّرته سيرة السلف الصالح، وصبرهم على المصائب ، وإنّها أعانته على الصبر والتجلّد «ونوضح لعلمكم الكريم، ورود كتابكم الكريم ، وخطابكم الفائق على الدّر النظيم، تفاخر الخمائل سطوره، ويصبغ خدود الورد الخجل منثوره»[1].

ومهما امتدت رسالة الإجابة عن التعزية ، فإنّها في الأغلب لا تتجاوز ثلاث أفكار هي: الإخبار عن وصول كتاب التعزية، ومدى تأثير ذلك الكتاب في نفس المعزَّى، من إحداث أثر إيجابي، وشكر المعزِّي على بعث ذلك الكتاب، ومشاركته لذوي الفقيد ترحهم.

العتاب والاعتذار:

العتاب والاعتذار صورة من صور المودّة والصدقة، وآية من الآيات الوفاء بين الناس[2]، فلا يكون العتاب إلا بين الأصدقاء الذين يرون المودّة في التواصل، وصفاء العلاقة، فإذا ما شاب تلك العلاقة شائب، كتب أحدهما للآخر عتاباً، مسجلاً فيه ما ساءه من حوادث أخلّت بتلك الصداقة، ومن هذا القبيل رسالة بعثها الصفدي إلى صديقٍ له يعاتبه فيها ويعتذر معاً، وفيها« يقبّل الأرض ويصف شوقه الذي شقّ الجوانح، وجرح الجوارح، وملأ الفؤاد فوادح، ويذكر حنينه الذي شغله عن ذاته، وأذهله حتى عن تمنّي اللقاء ولذّاته، ونغّص صفو عيشه بالبعد»[3].

في هذه الفقرة من الرسالة يصف الكاتب الحالة النفسية التي ألّمت به جرّاء تلك المقاطعة، فقد أصبح في غاية الشوق والحنين إلى صديقه، وقد نغّصت تلك القطيعة

---

(١) المصدر السابق، ٣/٤٠٠.

(٢) انظر القيسي، **أدب الرسائل في الأندلس** ، ص٢٨٤.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٢/٧٠٤-٧٠٥.

حياته حتى لم يعد يتذوّق طعماً للأماني، ولم يشعر بصفو الليالي.

ومن الاعتذار الذي سجله الصفدي في هذا الرسالة« هذا هو العتب المحمود العواقب، وهذا التأديب الذي يعقب الرضى ولا يعاقب، وقد عاد المملوك إلى صوْب الصواب، وتضرع من تلك السطور على عتبات العتاب، وظن أنما فتن فاستغفر ربه»[1].

يرى الكاتب أن الصواب الاعترافُ بالتقصير، وأنَّ معاتبته لصديقه ربما كانت في غير وقتها، وأنه قد اغترف ذنباً بذلك فيلتمس العذر من صديقة بقوله :« فليغفر مولانا هذه الهفوة، وليقلّه عثره هذه الخطوة، التي لم يلق فيها الحظوة»[2].

ومن رسائل الاعتذار ما بعثة الصفدي إلى صديقٍ ومنها « وينهي بعد دعاءٍ يرفعه في كل بكرة وأصيل، وولاء حصل منه على النعيم المقيم ولا يقول وقع في العريض الطويل، وثناءٍ إذا مزّ في الرياض النافحة صحَّ أن نسيم السحر عليل، وحفاظ ودٍّ يتمنّى كلُّ من جالسه لو أنّ له مثل المملوك خليل»[3].

يفصح الكاتب عن اعتذاره، ويؤكّد ولاءه لصديقه، ويثني عليه مرّةً بعد مرّةٍ، ويعده بحفظ الودّ ودوام الخلة، ويصف الكاتب الأثر الذي أحدثته هذه المعاتبة في نفسه «فلقد سوَّدت حال المملوك ببياضها، وُعدِم من عَدَم الفوائد البهائية ما كان يغازله من صحيحات الجفون ومراضها»[4].

ويحرص الكاتب على بيان الخجل والحرج الذي انتابه بسبب هذه المقاطعة، والتي جعلته يتخيل الود كالوهم فيقول: «ولكن توهم المملوك أن تكون صحف الود أمست مثله عفاء»[5] وهو يشير هنا إلى انقطاع كتب المودة التي كانت بينهما سائرة، ولكنّه يبدي

---

(١) المصدر السابق، ٢/٧٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢/٧٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ٢/٧.

(٤) المصدر نفسه، ٢/٨.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٨.

العجب والإعجاب من صديقه الذي لم يحتمل أن يصبر على تلك القطيعة، فبادر بإرسال ذلك العتاب فيقول: «يا عجباً كيف اتخذ مولانا هذا الصامت رسولاً بعد هذه الفترة، وكيف ركن إليه في إبلاغ ما في ضميره ولم يحمّله من در الكلام ذره، وكيف أهدى عروس تحيته ولم يقلّدها من كلامه بشذره»[1].

ويعدُ الكاتب صديقه بدوام المودة والخلة، وتجديد ما رث من حبل الصفاء، ويضمّن كلامه ببيت شعرٍ يحمّله هذا المعنى:

على كلِّ حالٍ أمّ عمرو جميلة وإنْ لبست خلقانها وجديدها[2].

وينهي الكاتب اعتذاره بلفتةٍ كريمةٍ، يُظهر فيها حلم المعاتب وسعة صدره، وتقبله للعذر، فيقول: «وبالجملة فقد مرّ ذكر المملوك بالخاطر الكريم، وطاف من حنوّه طائف على المودة التي أصبحت كالصريم»[3].

وللصفدي رسالة اعتذار يعتذر فيها عن انقطاع حصل منه، بدأها بمقطوعة شعرية، سجّل فيها عتاب صديقه، وبين فيها حالته النفسية المفزعة، وجاء في الرسالة:

«يقبّل الأرض وينهي ورود المشرّف الكريم، فوقف المملوك لوروده، وقبّل من سطره وطرسه عذار آسهِ ووجنة ورده، ومتّع ناظره من جنته الناضرة بحدائق ذات بهجة، وفداه لمّا رآه بسواد العين وسويداء المهجة، وتحقق أن أبا ذر حديثه أصدق لهجة، فلم يرتب فيما ادّعاه من المحبة»[4].

ففي هذا الاعتذار تُلمس روح المحبة الصادقة الوفية، فالكاتب يصور عتاب صديقه له بالجنة اليانعة، التي لا يستطيع صرف نظره عنها، وهذا يدل على صدق الكاتب في معاودة الصداقة والمودة، وهو كذلك لا يرتاب ولا ينتابه أدنى شك: في محبته وولائه

---

(١) المصدر السابق، ٩/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٩/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٩/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٤٧/٥-٤٨.

له، ولا يقف الكاتب عند هذا الحدّ من تأكيد المودّة والألفة، حتى يجعل نفسيهما نفساً واحدةً، وهذا يظهر في البيت الذي ضمّنه الرسالة:

قلبي لديك أظنّهُ يُملي عليك وتكتبُ[1].

أيْ كلاهما يشعر بوحشة الفرقة والتقاطع، حتى أصبح كتاب المعاتبة الذي ورد إلى الكاتب، ما هو إلا صادرٌ عنه في الوقت نفسه، فقد توحّدت مشاعرهما وعواطفهما، فكانت رسالة عتاب واعتذار معاً.

بصورة عامة يظهر في رسائل العتاب والاعتذار براعة الكاتب في اختيار العبارات، التي تنسجم مع جوِّ العتاب أو الاعتذار، وإشعار الصديق بالمودة التي قد عفت، والشوق والحنين إلى الألفة التي قد انصرمت، ويشعر المعتذر لصديقه بتقصيره، وشدّة شوقه إليه، ويصف الوحشة التي ألـمّت به جراء هذه الفرقة، وحاجته إلى معاودة الصداقة، والتماس العذر من معاتبه.

الألغاز:

اللغز في اللغة: الكلام الملبس، وألغز الكلام وألغز فيه: عمى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره[2].

وقد أدخل الكتّاب والأدباء الألغاز في الأدب واللغة، ولم يختص به عصر دون عصر، إلا أنّ العصر المملوكي من العصور التي وسّعت رقعة الرسائل النثرية والقصائد الشعرية التي تحمل هذه الألغاز.

ويرى فوزي أمين أن الألغاز والأحاجي لون من التلهية، شغف به عامة الناس والمتأدّبون بخاصة[3]، وقد لا يوافق الباحث فوزي أمين هذا الرأي، فقد يتجاوز هدفها

---

(١) المصدر السابق، ٤٨/٥.

(٢) انظر ابن منظور، لسان العرب مادة «لغز».

(٣) انظر أمين، فوزي، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، ص ٣٢٩.

عما قدمه من رأي إلى محاولة انتصار الأديب على خصمه، وإعجاز أنداده عن مجاراته، وإظهار براعته في التعبير عن كل أمر، وقد يكون سببه الخروج على المألوف من أغراض الأدب التقليدية؛ من مدح وفخر وهجاء. .الخ،ومما يؤيد رأي الباحث قول محمود سليم: أن الألغاز ليست من باب الفراغ والبطالة، ومظاهر انحطاط الأدب، وإسفاف الأدباء، بل هي وسيلة لقدح قريحة الأديب، واستدرار ذكائه، وتمرين ذهنه على حل المعضلات، وهي كذلك تسهم في ازدهار الحركة الأدبية وتشعل نشاطها[1].

وقد تبادل الصفدي رسائل حل الألغاز مع ثلّة من أدباء عصره، وكانت رسائل شعرية ونثرية، وقد أخذ الباحث جزءاً من رسائله النثرية في هذا المقام، ومما لاحظه الباحث على تلك الرسائل أنها -في معظمها- كانت في تقديم الحلّ، أي في الرد على من يوجه إليه تلك الألغاز، ومن الطريف أن رسائل الصفدي التي تحمل ذلك الحل، تكون هي الأخرى ألغازاً، فهو يقدم حلاً للغز بطريقة عجيبة، لا يلمحها إلا ذكي، ومن أمثلتها ما كتبه في جواب لغز، وهو «حرمدان» اسم درع:

«فرأيتك قد ألغزت في ظرف حوى حسن الشكل والظرف، وفيه الألف والنون والتركيب ولا يمنع من الصرف، وسدساه الأولان ثلثا «حرف»، وسدساه الآخران حرف، ويعبّر بألفاظه عن بابك المعمور للخائف، لأنه حرم قريب لا يوجد به خائف، حرز مما يودع فيه، وهذا وصف له من أجلّ الوظائف، ذو جلد على الغربة، فبينا هو بالبلغار، إذا هو بالطائف، ليس بعربي وعهده بالعجم قد تقادم، وليس هو من بني آدم، وإذا قلبته وجدت به آدم، ولا يفوّه بكلمة، ومتى عكس ثلثاه نادم، يتلون ألواناً وما ضم جسده جسداً، ونصفه مرح إذا قلب وسدساه داء وكله يرى ما بين جنبيه رمدا، يماثل قول المحاجي الأديب، مأمن للخائف قريب، وله خواص أخر عجيبة، وصفات بعيدة، إلا عن ذهنك الصافي فإنها قريبة»[2].

---

(١) انظر سليم؛ **عصر سلاطين المماليك**، ق١ ج٣، ص٣٠٦.

(٢) الصفدي؛ **أعيان العصر**، ٣١٧/٥.

استخدم الصفدي في سبك عبارات هذا اللغز كثيراً من الأساليب البلاغية: من استعارة، وفنون بديعية، ساعدته في تضليل من يقرأ تلك الرسالة، وقد بدأ بتحديد الإطار العام للغز، فأخبر بأنه ظرف، ثم اعتمد في بيانه تركيبته اللغوية من حروف ومعانٍ، فقد تلاعب في حروف «حرمدان» بالتقديم والتأخير والاجتزاء، وأعطى الحروف معاني وأغمض فيها.

وقد اعتمد الصفدي في تقديمه لهذا الجواب الوصف المجرد والحسي، وذلك من خلال ترتيب وعكس حروفه، وكذلك إضفاء بعض خصائص المحسوسات من مثل الألوان والجسد.

وللصفدي رسالة أخرى في جواب لغز، وهو «أمس» «وقف المملوك على هذا اللغز الذي أبدعته، وفهم بسعدك السرَّ الذي ودعته، فوجدته ظرفاً ملأته منك ظرفاً، واسماً بني لما أشبه حرفاً، ثلاثي الحروف ثلث ما انقسم إليه الزمان من الظروف إن قلبته سماً وأراك حرف تنفيس وما بقي منه ما ثلثاه مس، وكله بالتحريك «أمس»، وهو بلا أول تصحيفه مبيّن، وفي عكسه سم تعيّن، التقى فيه ساكنان فبني على الكسر، ووقع بذلك في الأسر لا ينصرف بالإعراب، ولا يدخله تنوين في لسان الأعراب، يبعد من كل إنسان، وينطلق به وما يتحرك به لسان، لا يدرك باللمس، ولا يرى وفيه ثلثا شمس، تتغير صفته حال النسبة إليه، ويدخله التنوين إذا طرأ التنكير عليه، حتى بات فات، ولم يعد له إليك التفات، أمين على ما كان من قربه، يعجز كل إنسان برده، فماضيه ما يردّ، وثانية ما يصدّ، وطريق ثالثه ما يسدّ:

ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هي غير اليوم والأمس و الغد[1]

ومثل هذه الرسالة لا يدرك مراميها إلا من تمّهر في اللغة وعلومها، فقد فسّر

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)؛ **الأشباه والنظائر في النحو**، تحقيق؛ عبدالعال سالم مكرّم، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٤، ص٢٥١-٢٥٢.

الكاتب اللغز على مراحلَ كما مرَّ، فكانت المراحلة الأولى وهي البسيطة، ذكر عدد الحروف وحالات تقديمها وتأخيرها واجتزائها وعكسها، وذكر بعض معاني حروفها، وحروف معكوسها، وهذا الأمر قد يدركه الإنسان دون الحاجة إلى ثقافة عالية ومُتخصصه، ولكن إذا ما انتقلنا إلى المراحلة الثانية، وهي مرحلة الوصف اللغوي والنحوي كون اللغز من ظروف الزمان «أمس»، فقد أنتقل الكاتب إلى علم اللغة والنحو وأغرق في وصفه من ناحية البناء والإعراب، فقد استخدم عبارات: البناء على الكسر، لا ينصرف بالإعراب لا يدخله التنوين في لسان العرب، وهذه المرحلة من الوصف لا يدركها إلا ذو حظٍّ من علم اللغة والنحو.

وفي المرحلة الثالثة، وصف الكاتب اللغز وصفاً حسيّاً، وهذا يظهر في عبارة «يبعد من كل إنسان وينطق به وما يتحرك به لسان ، لا يدرك باللمس ولا يُرى»[1].

وتظهر مهارة الصفدي في مواطن مختلفة من هذا اللغز، فعبارة وما يتحرك به لسان تعني معرفة الصفدي لخصائص الحروف، ولربما أهتدي إليه من حلّ بيت أبي العلاء:

أمس الذي مرّ على قربه يعجز أهل الأرض عن رده[2]

وذلك من خلال العبارة «يعجز كلُّ إنسان برده».

ونرى الكاتب يقرّب للأذهان ذلك اللغز، ولكنه سرعان ما يوهم القارئ، ويصرف ذهنه عن الحل، ففي عبارة «إنْ قلبته سماً» لولا التنوين لظهر المقصد.

والكاتب الذي يستطيع توظيف هذه المعارف في هذه الألغاز، أكاد أجزم بإفادة غيره في شحذ هممهم، والتبحّر في كلّ ما يقرّب الحلَّ لأذهانهم من معارف.

---

(١) المصدر السابق، ج٤/ ٢٥١.

(٢) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (٤٤٩هـ)، **شروح سقط الزّند**. تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ق٣، ص١٠١٦.

ويمكن أن نحكم على ثقافة الكاتب من خلال هذه الرسائل ، فقد يمدُّ الحديث طويلاً في وصف ذلك اللغز، مع أنَّ اللغز لا يحتمل عند بعضهم إلا أسطراً قليلةً.

وله رسالة في جواب لغز وهو «القطائف».

بدأها بأبياتٍ شعرية منها[1]:

بعثت بلغزٍ قد حلا منك لفـــظه فأخمل ذكر القَطْر فضلاً عن الشُّهد

فسامحْ فقد أوضحته لك صورةً على أنَّه لا بدَّ من شـــرح ما عندي

ويتجلّى في البيت الثاني أمرٌ هامّ، وهو يكمن في عبارة «لا بدّ من شرح ما عندي»، فقد أهدى الصفدي إلى صاحب اللغز صحناً من القطائف كما يخبر[2]، لذا فقد عرف اللغز، ولكن يبدو أنَّ الهدف ليس معرفة اللغز وإنما اختبار ما عند الكاتب من قدرةٍ على وصف اللغز، وتعميته على الناس، وإظهار الحذق والمهارة في سبك عباراته.

ومن جانب آخر يمكن أن تفيدنا هذه الرسائل في معرفة بعض عاداتهم الاجتماعية، وبعض أدواتهم الحضارية، فعادة تحضير القطائف في شهر رمضان عادة قد يظنّها بعض الناس حديثة، والأمر ليس كذلك.

ومهما يكن من أمر فإن رسائل الألغاز لم تكن وليدة عصر الصفدي، وإنّما كانت معروفة قبل ذلك، وهي كذلك لم تقف عند عصره، بل نطالعها اليوم في صحفنا صباح مساء.

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٢/٣٨٦.

(٢) انظر المصدر نفسه، ٢/٣٨٦.

الإجازات:

رسائل الإجازة والاستجازة من الموضوعات التي تبادلها كتّاب العصر المملوكي، وقد افتنّوا فيها أفانين كثيرة، ومن الجدير ذكره أنّ هذه الرسائل لم تكن وليدة عصرهم، ولكنهم نظّموها ووضعوا لها شروطاً دقيقة، بعد أن كانت في طور المشافهة[1].

وعلى هذا تكون الإجازة موجهة من شيخ إلى تلميذه ، ويجيزه فيها أمراً ما، عندما يشعر الشيخ بتمكّن الطالب من هذا الأمر.

وقد تنوعت الإجازات حسب درجاتها فمنها: الإجازة بالفتيا والتدريس -وهي أعلاها- «فقد جرت العادة أنّه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرّس ، ويُكتب له بذلك»[2] فتتوقف منح تلك الإجازات على قناعة الشيخ بطالبه، فإذا ما وجد فيه القدرة، والكفاءة على الإفتاء والتدريس كتب له بتلك الإجازة، وبناءً على تلك الإجازة يُسمح له بالإفتاء والتدريس.

ومن الإجازات ما يكون بعراضات الكتب «فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبواباً ومواضع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإنْ مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدلَّ بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك مَنْ عُرِضَ عليه»[3].

وقد حصل الصفدي على الكثير من تلك الإجازات، فقد منحه شهاب الدين الحلبي إجازة بعد أن عرض عليه الصفدي المقامات الحريرية[4]، وديوان أبي الطيب

---

(١) انظر باشا، **تاريخ الأدب العربي** (العصر المملوكي)، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٥٥٥.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ٣٦٤.

(٣) المصدر السابق، ١٤/ ٣٦٩.

(٤) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٣٧٦.

المتنبي[1]، وقد كُثرت هذه الإجازات ، ويصعب حصرها في هذا المقام.

ومن الإجازات : الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات وهي أن يطلب طالب من شيخه، أو غيره من أصحاب الفنون إجازته في مرويّاته، أو غيرها، وللصفدي الكثير من هذه الإستدعاءات، ومن ذلك ما كتبه لابن عساكر العسقلاني (٧٣٠هـ).

«المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ المفيد القدوة جامع شمل الأدب، قبلة أهل السعي في تحصيله والدأب، البليغ الذي أثار أوابد الكَلمِ من مظان البلاغة ، وأبرز عقائل المعاني تتهادى في تيجان ألفاظه. . .

إجازة كاتب هذه الأحرف ما يجوز له روايته من كتب الحديث وأصنافها، ومصنفات العلوم على اختلافها، إلى غير ذلك كيفما تأدّى إليه من مشايخه الذين أخذ عنهم من قراءة، أو سماع، أو إجازة، أو مناولة، أو وصية، وإجازة ماله -فسّح الله في مدته- من تأليفٍ ووضعٍ. . . إجازةً عامة على أحد القولين في مثل ذلك، والله يمتع بفوائده، وينظم على جيد الزمن عنه بيد غيره من إنشائه»[2].

ويبرز طلب الصفدي من ذلك الشيخ إجازته لمرويّاته، من كتب حديث، ومصنّفات علوم ، وما قد ألّفه من نثر ونظم، وما قد حصل له من جمع وغيره.

فما كان من ذلك الشيخ إلا أن كتب جواباً للصفدي مفاده «وقد أجبته إلى ما رسم به جملة وتفصيلاً، وأصلاً وفرعاً، وأبديت به وجهاً من وجوه الإجابة جميلاً، وما يجوز لي روايته من كتب الحديث وأصنافها، ،ومصنَّفات العلوم حسب ألّافها ، حسبما أُجزتُ به من المشايخ الذين أخذت عنهم، وسألت الإجازة منهم ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو وصية، وما لي من تأليف، ووضع ونظم ونثر وجمع»[3]، وبعد ذلك أخذ الشيخ يسرد أسماء مصنّفاته التي وردت الإجازة بهما للصفدي.

---

(٣) انظر المصدر السابق، ٥/ ٣٧٩.

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٥٠٦-٥٠٧.

ويُذكر في هذا المقام، أنَّ الصفدي كان يكتب تلك الاستدعاءات إلى أشهر علماء العصر، من أمثال ابن سيد الناس اليعمري، وابن الوردي، وأثير الدين أبي حيّان، والشهاب محمود الحلبي، وقد ورد تعريفٌ بهم عند الحديث عن شيوخه.

ومن هذه الرسائل ما بعثها إلى ابن سيد الناس يستجيزه: «المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة، المتقن الحافظ، رحلة المحدثين، قبله المتأدبين، جامع أشتات الفضائل، حاوي محاسن الأوائل والأواخر...

إجازة كاتب هذه الأحرف جميع ما رواه من أنواع العلوم، وما حمله من تفسير لكتاب الله، أو سنة عن رسول الله (ﷺ)- أو أثرٍ عن الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم- ومن بعدهم إلى عصرنا هذا، بسماع من شيوخه، أو سماع بقراءة من لفظه، أو سماع بقراءة غيره، أو بطريق الإجازة، خاصة كانت أو عامةً، أو بإذنٍ، أو مناولة، أو وصيّة كيفما تأدّى ذلك إليه»[1].

ومن خلال هاتين الرسالتين، نلحظ أمراً، وهو بداية الاستدعاء بعد الخطبة بعبارة، الطالب وهي: «المسؤول من... وبعد هذه العبارة يشرع في وصف ذلك الشيخ، وتقديم ما يليق بمقامه من نعوت، وألقاب، قد تصل إلى حدِّ المبالغة، وبعد هذا التقريض الطويل، ترد عبارة «إجازة كاتب هذه الأحرف... ويفصّل في طلبه حسب حاجته، من أنواع الفنون التي يرى ذلك الشيخ ضليعاً فيها، ويختتم ذلك بتاريخ الاستدعاء.

وقد ارتأى الباحث أن يبدأ باستجازاته قبل الإجازات التي كتبها لغيره، لكي يوافق التسلسل الزمني المنطقي، فقد تركّزت تلك الرسائل في العقد الثاني والثالث من القرن الثامن الهجري، وهي فترة طلبه العلم، أما بالنسبة لإجازاته لغيره، فقد تأخرت عن ذلك، ومنها إجازته لعلاء الدين بن القيسراني (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م).

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٢٠٩-٢١٠.

«أما بعد حمدالله تعالى حقّ حمده، وصلاته على سيدنا محمد نبيّه وعبده وسلامه فقد عرض عليَّ الجناب العالي الكريم، العلائي ابن المقر الشريف الشهابي ابن القيسراني:

جميع (المعلقات السبع)، من أوّلها إلى آخرها، وملحة الإعراب للشيخ أبي محمد القاسم بن الحريري -رحمه الله تعالى- في مجلس واحد، عرضاً عن ظهر قلب، وهذا يتعدّى إلى اللُبِّ، بهمزة السلب، كالتّسيل إذا تحدّر على الحقيقة من علي، والجود إذا أتى من كريم ملي، والحق إذا توضّح من جليل جلي:

فما رآه ناظري عارضاً ... لكنّه صاحب ديوان

وما تفاءلت له كاتباً ... بل حاكماً في صدر إيوان

وقد شهدتْ له فراستي أنّه ينزل من العلم الشريف في أعلى ربع، ويعرف اللغة، فلا يغيب شيء من غابها عنه، لأنه قد حفظ السبع، ويترقّى في سماء الفضائل بدراً لا يغيب عنها ولا يَغْرب، ويُخْرس الفصحاءَ ببيانهِ حتى لا يعرف كلامه يعرْبُ»[1].

وله نص إجازة على استدعاء طلبه خطيب بيت الألهة القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي.

فقد أسهب الصفدي في خطبته، وتحدث عن علم الرواية، ومكانتها المرموقة بين العلوم، وقد جاء في هذه الرسالة «فطلب الإجازة مني وأنا أحقُّ بالأخذ عنه، واستدعى ذلك منّي وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فنعمْ قد استخرت الله تعالى، وأجزتُ له ما يجوز لي تسميعه، وذكرت هنا شيئاً من مرويّاتي، وأشياخي -رحمهم الله- وذكرت مصنَّفاتي:

إجازة قاصرٍ عن كل شيء ... يسير من الرواية في مفازهْ

لمن ملك الفضائل واقتناها ... وجاز مدى العلى سبقاً فحازهْ»[2]

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٥٧٦-٥٧٧.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ٣٧٦.

ويظهر في إجازات الصفدي لغيره تواضعه الشديد، فيرى أنّهم أحقُّ منه في الأخذ عنهم، وهذا يتجلّى في عبارة «فطلب الإجازة مني وأنا أحقُّ بالأخذ عنه»[1] وكذلك في البيتين اللذين ضمّنهما إجازته.

وقد أظهر الصفدي مهارة فائقة في استجازته وإجازته، ولا بدَّ من الإشارة إلى بعض الأمور التي كانت ملازمة لكتابة الإجازة، أو الاستجازة، وهي كتابة اسم الطالب، وشيخه المجيز، ومذهبه، وتاريخ الإجازة، وأمور أخرى تهمّ ذلك العلم.

والإجازة تشبه إلى حدٍّ بعيد الدرجات العلمية في أيامنا هذه.

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ٣٧٦.

الرسائل الوصفية:

يكاد الوصف يكون جزءاً أساسياً في جميع أنواع الرسائل، حيث إنّه لا تخلو منه مكاتبةٌ ديوانيةٌ، أو إخوانيةٌ وقد أصبح الوصف في بعض الرسائل مطلوباً لذاته، وهذه الرسائل ما يطلق عليها رسائل الوصف، وفي مثل هذه الرسائل يطلق الكاتب لقلمه العنان في التقاط كل فريدة، وتسطيرها في رسالته، فقد يخلّي بينه وبين ما تمليه عليه أفكاره دون قيود وضوابط.

فيسبغ هذه الطائفة من الرسائل الخواطر التأملية، فالكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان[1].

وللصفدي إسهامات في هذه الرسائل، ولكن أغلب رسائله التي تحمل الوصف- الرسائل النثرية- ماعدا رسائل وصف الأمطار والثلوج، لا تكون مستقلة بالوصف عن الموضوع الرئيس، فمن رسائلة التي يغلب عليها الوصف إلى جانب موضوعها الرئيس: رسائل بشارات النيل، ورسائل التهنئة بالقدوم من الصيد، وبعض رسائله الديوانية عندما يصف الممالك والقلاع.

وقد غلب على رسائل الصفدي الوصفية، وصف الطبيعة الصامتة والصائتة، فمن تلك الرسائل ما يعرف بالشتويات، التي تبادلها مع ابن فضل الله العمري يصف فيها شتاء الشام -سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٣م)- من برد قارس يُعجز الناس عن الخروج من المنازل، وأمطار لا تفتر عن التساقط، وبَرَدٍ ينسكب كالحصى، وبروق كالشُّعل تلهب، ورعود تقصف، وسيول تتدفق، وثلوج تتهاطل كالقطن، وفي هذا الجو لا يملك الشخص إلا لزوم عقر الدار، متدثراً بالملابس التي تثقل الحركة، فيقول: « فمالنا ولهذه السحائب السحّابة، والغمائم السكّابة، والرعود الصخابة، والبرد الذي أمست إبره لغصون الجلود قطّابة»[2].

---

(١) انظر الحلبي، **حسن التوسل**، ص٣٨٢.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٤٢٩.

ولا يغارد الصفدي شيئاً من لوازم ذلك اليوم الماطر إلا ويصفه، كرسام ماهرٍ حاذق، يتقن لوحته الفنية، فيظهر في تلك اللوحة قوس قزح بألوانه الزاهية، وتظهر غدران الماء وهي تفيض فيما بينها، ويكسر زجاج صفائها حبيبات المطر الساقطة، وينظر إلى الميازيب، وهي تصرف الماءكانها شلالات، والثلج يعانقها كانّه نثار فضة، فيقول: «وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجوّ وفي أطرافها على الغدران إبر، والى متى تجمد عيون الغمام وتكحّلها البروق بالنار، وإلى متى نثار هذه الفضة وما يرى من النجوم دينار، وإلى متى تبكي الميازيب:-

بكاء الأولياء بغير حزن إذا استولوا على مال اليتيم»[1].

ويظهر الكتاب تبرّمه من هذا اليوم، وذلك من كثرة ارتداء الملابس، وملازمة البيت، واستعذاب النار، فيقول: « لقد أضجرنا تراكم الثياب، ومقاساة ما لهذه الرحمة من العذاب، وانجماع كلٍّ عن إلفة وإغلاق باب القباب، وتحلل الضباب زوايا البيوت؛ فالأطفال ضباب الضباب،كل ضب منهم قد ألف باطن نافقائه[*]. . . .قد حُسِدَ على النار من أمسى مذنباً، وأمسى عاصياً، وتمنى أن يرى من فواكه الجنات عنّاباً من النار وقراصياً»[1].

وله من رسالة بعثها إلى بدر الدين الغزي، يصف فيها الأمطار والثلوج، فيصور فيها جو ذلك اليوم الماطر، وما يحدث فيه من تراكم للسحب، ولمعان للبرق، وقصف للرعد، وسقوط للبرد والمطر، وما يوافق ذلك من شدة البرد، التي تعجز الشخص عن كسبه، فيقول: «كيف يهنأ العيش، وبروق الجو سيوف تخترط، ونفس هذه الرعود يخرج بعد ما حبس في حشا السحاب وانضغط، وإلحاح سائل هذا المطر، فلو كان قطره دراً لما مدَّ الفقير إليه يداً ولا التقط»[2].

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٤٣٠.

(*) نافقاء: جحر الضب واليربوع، ابن منظور لسان العرب مادة: نفق.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٠-٤٣١.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢١.

وبأسلوب أدبي يصف الصفدي أحوال المباني وأهلها، فيقول: «أما المساكن فأهلها مساكين، وأفواههم من الحزن مطبقة فما تفتحها السكاكين، قد انتبذ كل منهم زاوية من داره، وتداخل بعض في بعض لتضمه بقعة على مقداره، هرباً من توقيع أكُف الوكف، وخوفاً من ركوع الجدار، وسجود السقف»[1].

ومن رسائل الوصف كذلك ما يصف فيها الكاتب وفاء النيل، وكسر الخليج التي يبعث بها تهنئةً، وبشرى، ومن ذلك رسالة بعثها الصفدي عن السلطان الملك الناصر محمد:

«فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لجة، وأرخى نقاب تياره على وجه محجة، وارتفع إلى أن جعل على هضبات السحاب مقرة، وزاد إلى أن كاد يمازج نهر المجرة، وبعث سرايا مقدماته فتحصنت في كلّ فجٍّ وفجوة، وانعطف حول أزرار الأهرام كالعروة، وشرب دم المحل، فهو من تحت حباب القلوع كالقهوة»[2] فالكاتب يظهر سروره وبشراه من خلال وصف تيار الماء الذي فاض في كل مكان، حتى أصبحت الأرض القاحلة لجة محيط، وعلا تيار الماء حتى عانق السحاب، وهذا يعني ذهاب الجدب والقحط، والبشارة بموسم خير وعطاء، وحلول الأمل مكان القنوط واليأس.

ومن الرسائل التي ينال الوصف منها حظاً، رسائل التهنئة بالعودة من الصيد، ومن ذلك قول الصفدي: «بعد أن عُرِضت صيوده على مواقد النيران، وضَربت أطيارُها قباب أشلائها على طريق الوحش تتقارع منها على قرى الضيفان، ونُثر سندس الربيع من ريشها الأزرق ياقوت ومن دمها الأحمر مرجان، وغدت وجنة الأرض وفمها من الدماء مضرّج ومن الريش خيلان»[3] ففي هذه الفقرة من الرسالة يتناول الكاتب مشهد طهي تلك الطيور بالوصف، فيصف مواقد النيران التي يشوى عليها، ويصور كذلك

---

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ٤/ ٣٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٦٣٣.

أشلاء تلك الطيور وتناثرها في البقاع، ولا ينسى وصف ذلك الريش الذي كسا الأرض بألوانه المختلفة، حتى غدت الأرض تزهو بثوب الربيع، ولا يفوت الكاتب وصف دماء ذلك الطيور التي خضّبت وجه الأرض.

ومن وصف الطبيعة، ما ضمّنه الصفدي مقامة «لوعة الشاكي ودمعة الباكي» ففيها يصف الكاتب بستاناً حل به مع صديقه، فوصف ذلك البستان بما فيه من أشجار، وأغصان، وأزهار، ومياه، ونسيم، وأطيار، كل ذلك وصفه في لوحة أبدع رسامها، فما ترك الكاتب عنصراً من عناصر الطبيعة الصامتة أو الصائتة إلا وأخذ منه بسهم، فيقول: «فوصلنا إلى بستان قد أخذ زخرفه وتزيّن، وفاضت عيون النرجس غيرة من نازليه والمنثور تلون، تنساب جداول جوانبه كالأراقم، ويصفق النهر لرقص الغصون على غناء الحمائم، ويهب النسيم فينقطها الزهر بدنانير ودراهم، قد تطاول فيه من البان كل قدٍّ مقصوف، وخجل فيه من الورد كل خدٍّ موصوف، فأجلسنا النرجس على عينيه وأحداقه، وظللنا الغصن بسائر أوراقه، وحيّانامنثوره الأبيض بالأصابع، وفتح كفه الأصفر وهو منا غيران فاقع، وجرى النهر بين أيدينا متواضعاً في سجوده، وشبب الشحرور بمنقاره لما تغنى الهزار على عوده، قد رق نسيمه وراق، وجذب الحمائم لغنائه بالأطواق، وروى حديثاً تعطرت منه الربى والمسالك، وأهدى من خيام الحب ختام المسك، وفي ذلك:

أظن نسيم الروض للزهر قد روى ... حديثاً فطابت من شذاه المسالك

وقال دنا فصل الربيع فكله ... ثغور لما قال النسيم ضواحك

قد شاب ذلك الزهر قبل شبابه، وغناه الطير فتساقط من طربه وإعجابه، ومرّ عليه النسيم بذيله البليل، فشب حتى عجبنا من حصول الشفاء من العليل، فيا لها روضة صدحت أطيارها فأطربت صميم الأحجار ، وألبستنا ثوب الخلاعة عند خلع العذار:

انظر إلى الروض النضير كأنما ... نُشرت عليه ملاءةٌ خضراءُ

أنّى نسخت بلحظ عينك لا ترى ... إلا غديراً جال فيه الماءُ

وترى بنفسك عزّة في دوحة إذ فوق رأسك حيث سرت لواء

والماء قد رقّ وراق ، وتسلسل وهو في الإطلاق ، وجرى فتكسّر وصفا ولم يتغيّر . . . . . »[1].

ففي هذا النص الذي حرصت على أن أكتب منه هذا الكم الكبير ؛ لكي يقف القارىء على أكثر من عنصر من عناصرالطبيعة، وصف الصفدي مظاهر الطبيعة ، حتى كاد ينطقها ولا أجانب الصواب إذا زعمتُ أنّ الرسّام الماهر، إذا ما قرأ هذا النصّ يمكن أن يرسم لوحةً تأسر العقول والقلوب.

ولا يمكن للباحث أنّ يحصي رسائل الوصف التي تناولت الطبيعة في نثر الصفدي، وبخاصة إذا ما علمنا أنّ الوصف يدخلُ في رسائله الديوانية والإخوانية.

ومن مشاهد وصف العمران ما وصف به الكاتب قلعة صفد في مرسوم كتبه، فقد وصف القلعة بأنّها حصنٌ مشيدٌ ومن القلاع النادرة، وصور ارتفاعها الشاهق، وشرفاتها العالية، ومعانقتها للغيوم، ومطاولتها للثريا، فيقول: « فإن ثغر صفد المحروسة من الحصون المشيدة، والمعاقل الفريدة، قد طاولت النجوم شرفاته، وعلت على الغيوم غرفاته، وتلهبت ذبالة الشمس في سراجه، ونفض الأصيل زعفرانه على بياض أبراجه، كم لاثت الغمائم على هاماته عمائم، وكم لبست أنامل بروجه من الأهلة خواتم»[2].

وللصفدي رسالة يصف فيها فتنةً حصلت في دمشق، وجاء فيها «وحاول المملوك الجواب فجاءت هذه العوائق التي ما احتُسبت، والحوادث التي لم تكن كيوم القيامة؛ فإن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، يا مولانا هذه مصائب عمّت وطمّت، وصرّحت بالشَّرّ وما عمت، وقيدت إليها الأهوال وزُمّت، ودعت الجفلى إلى مآدبها،

---

(١) الصفدي، **لوعة الشاكي ودمعة الباكي**، تحقيق عبدالملك الوادعي، دار الناهل للطباع والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص١٧-١٨.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/١٠٨.

وأصمَّ المسامع نعي نوادبها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قول من ضاقت به حيلته، واتسعت عليه بالهموم ليلته:

وكان ما كان مما كنت أذكره فَظُنَّ شراً ولا تسأل عن الخبر

ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة، وفجر هذه الليلة العاتمة، فقد بلغت القلوب الحناجر، وحزت الغلاصم بالخناجر، وكسرت براني الصبر، وحسد من امتطى ظهر الأرض من استكن في جوانح القبر، وهذه رزية شموس التثبت بها كاسفة، وليس لها من دون الله كاشفة، اللهم أكشف هذه البليّة عن البريّة، ولقّ النفوس الظالمة ووقّ البريّة، وأجرنا على عادة أجرنا، وعجل فكّ أسرنا بأسرنا، إنّك بالإجابة جدير، وعلى كشف هذه اللأواء قدير»[1].

فهذا مشهد كما صوره الكاتب لمدينة عصفت بها الفتن، وعم فيها القتل والفساد، فصور لنا حركة الناس الفارين خشية القتل، وأسمعنا صوت النوادب الثكلى في النوادي، وأصبح كل شخص ليس له همٌّ سوى حماية نفسه، فقد ضاقت عليه المنافذ، وحاصرته الهموم من كل جانب.

وقد صور لنا تلك الحوادث بما سمعنا عن مشاهد يوم القيامة، لا بل بالغ الكاتب وجعل تلك الحوادث أكثر فزعاً، حتى حسد الحي الميت على قبره ومماته.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٨٦.

المقامات:

«وهي جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة بين الناس، وسميّت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها»[1].

ويرى سمير الدروبي أن المقامة نصٌّ أدبي مسجوع مرصّع بالمحسنات البديعية، وغير مقيد بطول معين، يتعاطاه الكاتب لإظهار براعته وتفوقه ، أو لإبداء رأيه في قضية ما، وقد تكون المقامة ستاراً للتعبير عن نزعاته، وتتخذ صورة حكاية أو مأدبة أو مقالة أو عظة[2].

وأول من ابتدع هذا اللون من الأدب بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ/١٠٠٧م)، وتلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، وتعدد الكاتبين في هذا الفن بعدهما.

وللمقامة أصول فنية ثابتة أركز دعائمها الهمذاني، وأصّلها الحريري، وهي وجود الراوي الذي يروي الأحداث، والبطل الذي يقوم بتلك الأحداث، كأن يقول الهمذاني: حدثنا عيسى بن هشام: . . . وهي كذلك تقوم على فكرة الحكاية والقصص، إضافة إلى الشكل اللفظي المسجوع، والفقرات التي تميل إلى القصر والبديع المتواتر.

غير أن نظام المقامة في العصر المملوكي تغير، فلم يعد الكتّاب يتمسكون بأصولها التي انتهجها الهمذاني، وأصّلها الحريري، من الراوي، والبطل، ولكنها حافظت على الشكل اللفظي المسجوع، والفقرات القصار والبديع المتواتر[3].

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ١٢٤.

(٢) انظر السيوطي جلال الدين (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **شرح مقامات جلال الدين السيوطي**، تحقيق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٤٢-٤٤.

(٣) انظر سلام ، محمد زغلول، **الأدب في العصر المملوكي**، ج٢، ص٩٩.

وثمة اختلاف كذلك طرأ على مضمونها، فقد كان مضمونها في موضوعات الكدية، والأحاجي، والتسوّل، إلا أنها قد تجاوزت ذلك لتعبر عن الأحداث الجسام في العصر المملوكي؛ كالحروب والفتن، وهي كذلك تعبّر عن الكتّاب، وتظهر همومهم وأفراحهم، في ثوب قصصي، واستغلها بعض الكتّاب كذلك في الوعظ الديني، وفي اللهو والإضحاك[1].

ويؤكّد هذا الرأي عمر موسى بقوله: إنّ المقامة لم تحتفظ من صفات المقامات إلا بأسلوبها المرصّع المملوء بالزخارف البديعية، والصور البيانية، أما البطل الأسطوري، والراوية التقليدي، والقصة المحبوكة، فلا نجد لها أثراً أبداً[2].

وهذا ما دعا شوقي ضيف إلى أن يقول: أن أكثر المقامات حينئذ كانت ينقصها القص، والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه[3].

وللصفدي فيما كتبه نثراً مقامتان: إلا أنه لم يخرج عن أساليب كتّاب عصره في كتابة المقامة، فأولى هاتين المقامتين: مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق، وموضوع هذه المقامة، الحريق الهائل الذي أحدثه النصارى، في مدينة دمشق، فجاء في البداية والنهاية في أحداث سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) قول ابن كثير: «ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة، أن جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم وجمعوا بينهم مالاً جزيلاً، فدفعوه إلى راهبين قدما عليها من بلاد الروم يحسنان صناعة النفط، اسم أحدهما ملاني والآخر عازر، فعملا كعكاً من نفط، وتلطفا حتى عملاه، لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك، فوضعاه في شقوق دكاكين التجار في سوق الرجال عند الدهشة، في عدة دكاكين، من آخر النهار، بحيث لا يشعر أحد بهما،

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٩٩.

(٢) باشا ، **الدول المتتابعة**، ص٨٠٧.

(٣) ضيف ، شوقي، **عصر الدول الإمارات -الشام**، دار المعارف، ط٢، ص٣٢٠.

وهما في زيّ المسلمين، فلما كان في أثناء الليل، لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين، حتى تعلقت في دربزينات المأذنة الشرقية، المتجهة للسوق المذكور، واحترقت الدربزينات، وجاء نائب السلطنة تنكز، والأمراء الألوف، وصعدوا المنارة، وهي تشعل ناراً، واحترسوا عن الجامع، فلم ينله شيء من الحريق، ولله الحمد والمنة، وأما المأذنة فإنها تفجرت أحجارها، واحترقت السقالات التي تدل السلالم، فهدمت وأعيد بناؤها بحجارة جدد، وهي المنارة الشرقية. . .

والمقصود أن النصارى بعد ليالٍ عمدوا إلى ناحية الجامع من المغرب إلى القيسارية بكمالها، وبما فيها من الأقواس والعدد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس، واحترق جانب من المدرسة الأمينية. . .وما كان مقصودهم إلا وصول النار إلى معبد المسلمين، فحال الله بينهم وبين ما يرمون، وجاء نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين الحريق والمسجد جزاهم الله خيراً.

ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم، أمر بمسك رؤوس النصارى، فأمسك منهم نحواً من ستين رجلاً، فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات، وأنواع المثلات، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد، وجعلوا يتماوتون واحداً بعد واحد، ثم أُحرقوا بالنار حتى صاروا رماداً»[1].

وقد فصّل القول المقريزي في هذه الحادثة، وذكر أسماء منفّذي الحريق، وتحدث عن كيفية تهريبهم إلى قبرص، وكيفية وضع عبوات النار، وعن تعذيبهم ومصادرة أموالهم. . .[2].

وهذه الوثائق التاريخية تضيء لنا ما جاء في مقامة الصفدي المذكورة، من مشاهد، وأحداث، إلا أن الصفدي زاد على المؤرخين بإضافة عواطفه، وأحاسيسه، وأخيلته إلى تلك الحادثة[3].

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٤/١٩٧-١٩٨.

(٢) انظر المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٢ ق٢، ٤٩٥-٤٩٧.

(٣) انظر الدروبي، **رشف الرحيق**، ص٨٦.

فقد بدأ المقامة بوصف المناطق الجميلة في دمشق، من بساتين، وحدائق، وأنهار، وأطيار، وزخرفة للعمارة، فيقول: «فما سرت فيها إلى روض إلا وأجلسني من النرجس على أحداقه، وقام السرو من السرور بين يدي على ساقه، . . .

ولازمت جامعها الذي تحيرت العقول في تكوينه وكنهه، وحسنه الذي لم يكن فيه عيب سوى أنه لم تقع العين على شبهه. . . وكم حُسن بناء عند بنائه يعُربُ أنه مرفوض، كم أظهرت الصناع فيه بدائع لا يدعيها غيرهم. . .»[1].

واتبع ذلك الوصف بخبر الحريق الذي علت ألسنة النار فيه إلى النجوم، فيقول: «إن الحريق وقع قريباً من الجامع، وانظر إلى سبيج الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه، والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار، كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء ذوائبها»[2].

وقد انتشرت تلك الحرائق حتى أتلفت الأسواق، والمنازل، فيذكر بعض الأسواق فيقول: «وأصبح باب الساعات وهو من آيات الساعة، وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة وعادت الدهشة، وقد آل أمرها إلى الوحشة. . . ونظرت إلى الوراقين، وقد زال ما بها من الطرائف. . . وبالسوق الخيم كيف ذهب، وعدم النصر على الكافرين. . . وبالسوق القسي كيف محي من الوجود ونسي؟. . .»[3]

ويصور لنا الكاتب صورة الحاكم(*) وجنوده، وهم يكافحون هذه النار بعزم ثابت، ويذكر بعض الطوائف التي اشتهرت في العصر المملوكي بإطفاء النار، فيقول: «فبينما

---

(١) المصدر السابق، ص٩٩-١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩.

(*) الأمير الكبير تنكز الحسامي نائب السلطنة في دمشق (ت٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، (انظر الصفدي، أعيان العصر، ١/ ١١٦).

هما في المناجاة وتكرار المحاجاة إذ جاء النار خبر مالك، وأشرف من زهيت به الدول والممالك، فجاس خلال ضرامها، ودخل لظاها فتلقته ببردها وسلامها، وتبع أثرها الذي آثر اقتلاعه، واقتحمها فتعلقت إذ تألقت في الجو والفرار قدام الملوك طاعة، ولم يُر تلك الساعة أحداً أقرب منه إليها، ولا أسلط سطاً منه عليها، رتب في جهاتها مماليكه، وأمراءه، وصغار بنيه، وكبراءه. . . فلم ير أسهل من خمودها، ولا أسرع من إبطال حركتها وجمودها ونصر أعز الله أنصاره هذه الملة المحمدية، وحاز بهذه المنقبة الكرامة الأحمدية(*)»[1].

وقد زاد حزن الناس واشتد جزعهم وتبدلت أحوالهم فأصبح الغني فقيراً وصاحب النعمة أمسى معدما فيقول في ذلك «وأصبح أهلها كالحمائم تنوح على أقفاصها وتود اللآلى أنها لم تخرج إليهم من مغاصها فما منهم إلا رب نعمة سلبت أصبح بعد الجديد في خلق، أو غني أمسى بعد ما ضم قفصه يكدي في الحلق. . .»[2].

وفي مشهدٍ آخر يصور الكاتب فزع الناس وخوفهم من مغبة عقاب الحاكم للفاعلين فيثار لهم الفرنجة، وفي ذلك يقول: «فتهيب بعض الناس رميهم بهذا الحجر وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم وفخر، وخوّف بانتصار الفرنج أهل ملتهم وإزاحة علتهم وكشف غمتهم والأخذ بثأر رمتهم»[3].

وعلى الرغم من هذا التخوف إلا أن الحاكم أبدى حزماً في قطع شأفتهم، فعاقبهم على شر فعلتهم فأكلت السياط جلودهم وأحرقت النار أجسادهم، فيقول: «فما كان إلا أن صممت العزمات السيفية. . . ورسم بإمساك من أبرم هذا الأمر وحرّره وبيّت على

(*) فرقة ضالة كانوا يدخلون النار المشتعلة ويأكلون الحيات ويلبسون الأطواق في أعناقهم. . .انظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ق١، ج٢، ص١٦.

(١) الدروبي، **مقامة رشق الرحيق**، ص١١٠-١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٢.

فعله وقرره، فأقروا بما فعلوا غمتهم ووجدوا ما عملوا فضربوا بسياط كشطت غلط الغلط من جلدهم وأوهنت قوى شجاعتهم وجلدهم»[1].

ولم يكتف تنكز بمصادرة أموالهم، وتعذيبهم، بل أصدر مرسوماً يقضي بتسميرهم، وهي طريقة تعذيب كانت معروفة عند المماليك، فيقول: «ولما أخذ سحت أموالهم، وصرف في إيجاد ما أعدموه بفعالهم... ورد المرسوم الشريف بتسميرهم(*) على الجمال، وإظهار ما لهذه الملة القاهرة والجمال»[2] فكان هذا العقاب رادعاً لمن تسوّل له نفسه بإيذاء المسلمين وترويعهم.

أما من الناحية الشكلية لهذه المقامة، فإن الكاتب لم يحتفظ بالشكل المقامي الذي سار عليه بديع الزمان الهمذاني والحريري، من حيث ظهور البطل والراوي، ولم يجعل كذلك الكدية موضوعاً له[3].

والناظر في مقامة الصفدي رشف الرحيق، يجد الكاتب ينص في بدايتها على ذكر الراوي دون البطل، ولكن متى أنعمت النظر تجد البطل صلاح الدين الصفدي نفسه، وذلك من خلال إظهار عواطفه وأحاسيسه وأشجانه، فهو محور أساسي يقوم بدور الراوي والبطل معاً[4].

أما بالنسبة إلى عنصر القص والحوار، فإنه لم يكد يلحظ فيها، فهي مشاهد ينقلها الكاتب في فقرات تحمل كل فقرة فكرة معينة، يبدأها بعبارة «قال أو قلت» فالكاتب من بداية المقامة إلى نهايتها يصف لنا ما حلّ بدمشق من حريق، فهي كما يرى سمير

---

(١) المصدر السابق، ص١١٣.

(*) طريقة تعذيب في العصر المملوكي، وفيها يعرّى المحكوم عليه من الثياب ثم يربط على خشبتين على شكل صليب، ويطرح على ظهر جمل... وربما طيف بالمحكوم عليه على هذا الجمل ثم يأتي السيّاف فيضربه ضربة بقوة تحت السرة تقسم الجسم نصفين...» انظر المقريزي، السلوك، ج١/ق٢/ ٤٠٤.

(٢)الدروبي، **مقامة رشق الرحيق**، ص١١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٨.

(٤) انظر المصدر نفسه، ص٩١.

الدروبي تقترب من المقالة في طولها وسرد أحداثها[1].

وقد جرى الكاتب على أثر سابقيه في أسلوب مقامته من حيث عناصر البديع، فقد كان عنصر السجع أمراً أساسياً في المقامات البديعية، والحريرية، ومن تبعهما في هذا المقام، ويظهر هذا العنصر جلياً في مقامة رشف الرحيق، ومن ذلك «ولم يزل الناس من أمر هذه النار في قلق، وحدس نفى عن قلوبهم القرار ورمى جفونهم الأرق، وحنق تود الصبح لو تنفس والفجر معه لو انفلق، حتى أظهر الله تعالى أن النصارى قصدوا الجامع بذلك وتخيلوا أن النار تلعب في جوانب دمشق وما الناس إلا هالك وابن هالك، وتوهموا أن فعلاتهم المذمومة تغطي مساويها الليالي الحوالك...»[2].

ويظهر في هذه الفقرة السجع إلا أن الكاتب لم يحافظ على طول سجعاته على الرغم من حرصه على مزاوجته بين سجعاته، ويرى الدروبي أن ذلك يعود إلى مذهبه الفني، ونظرته إلى السجع المصقول[3]، والكاتب بنى مقامته كاملة على عنصر السجع.

ومن الأساليب الفنية التي توخّى الكاتب التزامه في مقامته ظاهرة الجناس، والصفدي مولع بهذا الفن حتى أنه ألف كتاباً في هذا الفن، والكتاب هو «جناس الجناس» وقد أكثر الكاتب من الجناسات في مقامته، سواء أكانت جناسات تامة أم ناقصة، ومن ذلك:-

السرو السرور[4]، تأتى تأبى[5]، حِصة حُصة[6]، عقود وقود[7]، المضاجع المهاجع[8]، تعج تلج[9]...

---

(١) انظر المصدر السابق، ص٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٢.

(٣) انظر المصدر السابق، ص٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٨) المصدر نفسه، ص١٠١.

(٩) المصدر نفسه، ص١٠١.

والناظر في تلك المقامة يجدها تفيض بهذا اللون من الحلية البديعية، فلا يكاد يخلو سطر من الجناس، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه من شدة ولعه بالجناس.

أمّا الحلية البديعية التي لا تقلُّ أهمية عند الصفدي عن الجناس فهي التورية، وقد ألّف الصفدي في ذلك كتاب« فض الختام عن التورية والاستخدام » ومن التوريات التي تناثرت في المقامة: نسره[1] (المعنى القريب: الطائر والمعنى البعيد هو: المسجد الأموي الذي يشبه بالنسر، وهو المراد) ومن ذلك الجائية[2]، الغاشية[3]، سبابة[4]، شبابة[5]، شقيقة[6]. . . . . وقد عمد الصفدي إلى الاكثار من الاقتباس والتضمين، وحلّ المنظوم، واستخدام أشعار غيره في هذه المقامة.

والمتتبع لسرد أحداث المقامة يجد ضمير الغائب يغلب عليها، وهو بذلك يعطي قدراً كافياً من الوصف، والتصوير، ويسمح بحركة أكبر لراوي الخبر في نقل المشاهد.

وقد لوحظ في بعض الأحيان مقاطعة الكاتب للراوي، وذلك بعبار« قلت»، لجذب انتباه القارئ وشدّه لمتابعة أحداث المقامة، إلا أنَّ الحوار كما أسلفنا يكاد يكون معدوماً بين الراوي والبطل، فالكاتب يجمع بين الرواية والبطولة معاً.

أما المقامة الثانية فهي:« لوعة الشاكي ودمعة الباكي»[*] وهذه المقامة، تتلخص

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(*) هذه المقامة يشك في نسبتها للصفدي وسبب ذلك ما كتبه حاجي خليفة في كتابه« كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» حيث جاء فيه:« لوعة الشاكي ودمعة الباكي- للشيخ زين الدين منصور بن عبد الرحمن الشافعي المتوفي سنة ٩٦٧هـ وهي مقامة حسنة ولعله لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ولربما له أيضاً» ج٢/ ١٥٧٠ دار الفكر.

وعند دراسة المقامة وجد الباحث بعض الإشارات التي ترجّح نسبتها للصفدي، فقد لو حظ بعض التشابه في عباراتها مقارنةً بعبارات مقامته رشف الرحيق ومن ذلك« فأجلسنا النرجس على عينه وأحداقه وظللنا = =

أحداثها في قصة رحلة قام بها الصفدي، بصحبة صديق له، إلى رياضٍ جميلة، وقد وصف الصفدي هذه الرياض وصفاً رائعاً، وأثناء مقامه في تلك الرياض، صادف أن رأى مجموعة من الغلمان الترك، وقد شغف بحبّ أحدهم، واستطاع أن ينفرد به، ويثه أشواقه، وأوجاعه، وصبابته، إلا أن الوقت لم يسمح له بالمكوث معه طويلاً، مما جعل الكاتب ينزع منه موعداً آخر، وفي المكان نفسه، وظل الكاتب ينتظر الموعد المضروب بأحرَّ من جمرٍ، وصديقه يهوّن عليه، وعند حلول ذلك الموعد، تأخر المعشوق عن القدوم، فأرسل الكاتب صديقه في سفارة لاستعجال معشوقه، وعندما شاهد معشوقه، سقط الكاتب من الفرح، وتجاذبا الحديث، وتبادلا القبلات والعناق مع معشوقه، وبات معه ليلةً تقاصر طولها، وفي الصباح ودعه والكاتب يأمل في لقاء آخر.

وموضوع هذه المقامة كما مرَّ الغزل بالمذكر ، وهذا الغرض تسأم النفس من الخوض فيه ويبدو أنّ كتابة الصفدي مثل هذه المقامة من قبيل رياضة الخاطر ومجاراة

= الغصن بسائر أوراقه وحيّانا منثوره الأبيض والأزرق بالأصابع، وفتح كفّه الأصفر وهو منّا غيران فاقع وجرى النهر بين أيدينا متواضعاً في سجوده وشبب الشحرور بمنقاره لمّا تغنى الهزار على عوده قد رقّ نسيمه وراق وجذب الحمائم لغنائه بالأطواق» لوعة الشاكي ص١٧-١٨.

هذه العبارات تشابه «فما سرت فيها إلى روضٍ إلا واجلسني من النرجس على أحداقه. . . . . وجرى الماء في خدمتي لكرم أخلاقه وظللني الدوح لطيب أعراقه ومد الغصن لي ستور أوراقه وغنى لي الحمام على عوده ولو تأنّى أو تأبّى جُرّ بأطواقه» رشف الرحيق، ص٩٧.

وكذلك عبارة« وقام السرو من السرور على ساق» لوعة الشاكي ص١٩ وهي تماثل عبارة «وقام السرو من السرور بين يدي ساقه» رشف الرحيق ص٩٧ .

ومن المؤشرات كذلك وجود كثيرٍ من أشعار تلك المقامة في كتاب الغيث المسجم للصفدي ولم يعثر الباحث على شعرٍ في تلك المقامة ينسب إلى شعراء متأخرين عن عصر الصفدي.

ومن المؤشرات التي تقوّي نسبة تلك المقامة للصفدي عبارته فيها حيث يقول: « فقلتُ له: وشهودي معي وقد فاضت عيوني بأدمعي:

إن كنت تنكر حالي والغرام وما ... القسى وإني لفي دعـواي متهمُ
فالليل والويل والتسهيد يشهد لي ... والحزن والدمع والأشواق والسقمُ»

لوعة الشاكي ص٢٨- ٢٩ وجاء في الغيث المسجم ما نصه: « وقلتُ أنا في هذه المادة:

إن كنت تنكر حالى والغرام وما ... الـقى وإني لفـي دعواي متهمُ
فاليل والويل التسهيد يشـهد لي ... والحزن والدمع والأشواق والسقمُ

الغيث المسجم ح٢ ص٤٣٣.

أدباء العصر في طرح مثل هذه الموضوعات، ولا يمكن الظن بأنَّ الصفدي وهو الفقيه الكبير ممن يشجعون مثل هذه الموضوعات، وهو كما يرى محمود رزق ليس بحادث جديد في عصر الصفدي، وإنما هو ظاهرة موروثة ، زادتها الظروف الاجتماعية في العصر المذكور ثباتاً ورسوخاً، لكثرة ما عجّت به الأسواق والدور من غلمان الأتراك، وما اتسموا به من حسن وجمال ورقة وملاحة واستسلام[1].

والمقامة قصصية، وصفية بين غزل عريق، ومجون رفيق رقيق[2]، ولا بدّ من استعراض بعض مشاهدها، فمن تلك المشاهد، وصف الرياض: «ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن في الاتفاق، ويكرر ألحانه ويراسل في الأوراق، ويجتهد في الصلح ويدعو إليه ويحرص على الوفاء ويحرص عليه، وقام الشحرور بينهما واعظاً وخطيباً، فأجدت مواعظه وكان قلب النهر صافياً وقريباً، فاصلحا واتفقا وتلازما واعتنقا وقام السرو من السرور على ساق، وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق ، وتبسّمت من الأقحوان الثغور، وتنسّمت نفحات المسك والكافور واعتل النسيم غيرة وتغيّر. . .

فسرّحنا الناظر في تلك الربى والرياض، وشرحنا الخاطر برؤية تلك الخمائل والغياض، وأصغينا إلى نغمات طيورها الصوادح، واستنشقنا أرج نسيمها الفائق الفائح. . .»[3].

وجاء منها في وصف مجموعة من الغلمان الترك، قوله: «فحدّقنا نحو تلك الحدائق، لننظر ما هذا الأرج الفائح الفائق، وإذا بغلمان عدد الكواكب السيارة ، قد أمالوا الشمس في الهالة، وأخجلوا القمر في الدارة، من الترك الذي فاقوا بالملاحة والجمال، وتنهّلوا من مناهل مياه الدل والدلال، قد تجنّوا على العاشق فغدا في حالة مقلقة ، ويخلو بالوصل على الصّب بعيون ضيقة، وأحرقوا قلب المتيّم ببرد الثنايا وبرد

---

(١) انظر سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ج٣، ص٤١٠.

(٢) انظر المرجع نفسه، ق١ج٣، ص٤٠٩.

(٣) الصفدي، **لوعة الشاكي**، ص١٩-٢٠.

البرد، وأرسلوا إلى مقاتله من النواظر أسهماً ، وطعنوه بسمر قدودهم العوامل، وأسروه بلطف هاتيك المعاطف والشمائل، لم يتركوا فضلة في المحاسن واللطائف»[1].

وقد استطاع الكاتب أن يحدد من سباه، وأذهب لبّه، وتيّم قلبه ، فيقول في وصفه: «فبدا لي بينهم مفرد كأنه غزال نافر، أو بدر سافر، قد بهر حسناً، وظرفاً، وفاق رشاقة، ولطفاً وتقمّص بالحسن ، وارتدى بالجمال، وتسربل بالغُنْج، وتمنطق بالدلال، وإن تبدى أنكرتَ البدر في تمامه، أو تثنّى لم تعرف الغصن من قوامه، أو رنا لم تدر أسحراً بدا أم نصال ، أو التفت لم تذكر بعدها جيد غزال، قد أسهر العاشق بجفنه الوسنان، وفتن الرامق بقده الفتان»[2].

ويصور الكاتب صبوته إليه، وشدة عشقه له، وتمكّن حبّه من قلبه، وضعف صبر على هجره، وسلطان غرامه على فؤاده، وفي ذلك يقول: «فلما رأيته خطف قلبي، وضعف بصري، وتضاعف كربي، وتهت في مهالك الوجد، ومهام الغرام. . . وقادني الوجد والغرام قود المطية، وأصبحت بعد ذلك الخلو ملآنا ، وبعد الرقاد مسهداً سهراناً، وملت بعد الراحة إلى التعب»[3].

وظل الكاتب يصارع نفسه في حبّ ذلك الغلام، حتى عزم النيّة على محادثة الغلمان، وبث حزنه المشوب بالشوق إليهم، بل ويشكو إليهم ما حلّ به من هُيام وغرام، فيقول «فدنوت منهم، وقد عقد الهوى لساني، وقيد الحب والغرام جناني، أما ترثون لصبّ مستهام، وأسير في قيود الوجد والغرام، وقتيل بالعيون الوقاح، وطعين بالقدود التي هي كالرماح ، وصريع بمدام المراشف، ولديغ من عقارب السوالف. . .»[4].

---

(١) المصدر السابق، ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٤-٢٥.

وبعد هذه الشكوى، يرقّ له المعشوق، ويتصدى لجوابه، فيقول: «فبادر إليَّ منهم ذلك البدر الزاهر، والغصن الناظر، . . . وقال بأحسن مقال: أنت حباك الله، ورقّاك، وسلمت من دواعي الهوى، ووقاك. . .»[1].

وبعد هذه المناجاة، يختلس المعشوق غفلةِ أصحابه؛ ليخلو بالكاتب؛ من أجل منادمته، وفي ذلك يقول الكاتب: «ثمَّ تخيّل غفلة أترابه، وركض نحوي بجواده، ففتح لي باب الفرج، وأدخلني من باب النصر دار السعادة، وقال: امضِ بنا مسرعاً إلى آخر باب هذا البستان»[2].

وظل الكاتب يحاور معشوقه، ويجاذبه الهوى، والحنين في عباراته التي يغلفها الشوق والمجون معاً، وفي الوقت نفسه، يحصلُ الكاتب من ذلك الغلام على ما يصبو إليه، من أفعال خليعة، وألفاظ ماجنة، ومنها: «فضممته إلى صدري ختمة وأيّ ختمة، وبادرته بلثمة بعد لثمة، فسلّم إليَّ في اللثم وفي الرشف قيادي، وأبلغني من الضّم والقُبل مرادي. . .»[3].

وتسير أحداث تلك المقامة على هذه الشاكلة حتى يبلغ الذروة في الخلاعة، والمجون غير المبرر إيراده في هذه الصفحات.

ومن الناحية الفنية، فإنَّ هذه المقامة لا ينصّ الكاتب فيها على وجود الراوي، كما فعل في مقامة رشف الرحيق، والذي دفع محمود رزق إلى القول بأنها مقامة -على الرغم من عدم وجود الراوي- ما توفر فيها من عناصر المقامة من تصوير، وحوار، وخيال[4].

وقد غلب على هذه المقامة عنصر الوصف، فمعظم نصّها يخضع لهذا العنصر،

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥-٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٤) انظر سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ق١ج٣، ص٤٠٩.

فيصف الرياض، والغلمان، والمعشوق، وما حصل معه في تلك الرحلة من سعادة وحزن.

أما عنصر الحوار، فكان له نصيبٌ وافرٌ فيها، وذلك من خلال استخدامه للفعل قال: . . . وقلت، فقد كان هذا الحوار سمة غالبة على أحداثها، والكاتب يمثّل طرفاً في الحوار، والطرف الآخر يتناوب عليه الصديق مرةً، والمعشوق أخرى.

وعنصر القصّ والحكاية ملازمٌ لأسلوب الحوار في كثير من الأحيان، لذا فالمقامة من الناحية الشكلية تقترب من القصة، وذلك لوجود عناصر القصة، مثل الشخوص، والحوار، والمكان، والزمان، والحبكة، ففي هذه المقامة تظهر الحبكة بوضوح في أحداثها، وهذا يرجع إلى طبيعة موضوعها، فالموضوع مُتخيّل؛ لذا فالخيال يسمح للكاتب أن يمرح، ويجول في أحداث مشاهدها، فهو مطلق العنان لا يحدّه واقع كواقع مقامة رشف الرحيق، التي تمثل واقعاً ملموساً لا مجال فيه لتغيير الحقائق، أو تزيّدها.

أما من الناحية الشكلية، فا لمقامة لا تختلف عن سابقتها، مقامة رشق الرحيق، فهي مسجوعةٌ، ومن ذلك: « كلّ ذلك وأنا ذاهل ذائب، ونادم ونادب، متضلع من ماء جفني الساكب، متطلع إلى سرعة عَوَد الصاحب، لا أستقر بمكان واحد، ولا أظفر بمساعفٍ ولا مساعد. . . »[1].

وهو كذلك لا يوائم بين طول سجعاته، فمرة لا تتجاوز السجعة كلمتين، وتارة أخرى قد تصل إلى خمس كلمات، ولكنه يبقى يحافظ على السجع في جميع جمل المقامة، وقد عرفنا سابقاً ولعه بالسجع.

وتسير كذلك المقامة سير سابقتها في الحفاظ على الجناس بنوعيه التام

---

(١) المصدر السابق، ص٥٦.

والناقص، ومن ذلك: سَنَةَ سِنة[1]، ثبوت وثوب[2]، زوال غزال[3]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وهو كذلك يكثر من التورية على عادته: ومن ذلك « لأجعلنَّ وجهي في خدمتك أبيضاً»[4]. أبيض: المعنى القريب اللون المعروف والبعيد وهو المراد حسن الصنيع، ونصبي واقفاً أتلهف من عينيه وصدغيه على الماضي والسالف»[5] السالف: المعنى القريب الماضي والبعيد وهو المراد خصلة الشعر المحاذية للأذن، وكيف لا يتمنى الوامق إشراق الغزالة لميعاد الغزال»[6] الغزالة المعنى القريب الضبي والمعنى البعيد وهو المراد الشمس، وهذا كثير في المقامة، وذلك راجعٌ إلى مذهبه البديعي في تزويغ عباراته، ولا ننسى أنّه فنان في الرسم، فكما يرسم لوحته بخطوطها الغامقة والفاتحة؛ يرسم كذلك عباراته وألفاظه.

وقد عمد كذلك إلى توظيف الموروث، من آيات للذكر الحكيم، والشعر والأمثال وحل الأشعار وكل ذلك سيأتي بيانه في الدراسة الفنية.

وهناك تساؤل وهو لماذا لم يحافظ الصفدي على الشكل التام للمقامة كما هي مقامات الهمذاني والحريري؟

كان الصفدي مطلعاً على فنِّ المقامة اطلاعاً تاماً؛ وذلك من خلال دراسته بل حفظه لمقامات الحريري، وهذا يظهر في قوله: «وكنت قد قرأت عليه المقامات الحريرية، وانتهت منها إلى آخر المقامة الخامسة والعشرين في سنة ثلاثة وعشرين وسبعمائة»[7].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٥١.

(٧) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٣٧٦.

ويظهر لي أنه يمكن استبعاد كل وجهة نظر تقول بعدم مقدرة الصفدي على مجاراة الهمذاني والحريري في الحفاظ على الشكل التام للمقامة من راوٍ وبطلٍ، ومن هنا لا يوجد مبرر للإخلال بهذا الشكل الفني إلا من باب التجديد والتحرر من القيود التقليدية المتبعة، فهل يمكن مثلاً أن نعد قصيدة التفعيلة نوعاً من عجز الشاعر وعدم مقدرته على الإتيان بالشعر العامودي؟

لا أظن ذلك وارداً في حسابات النقاد، بل يعدونه من التجديد والإنطلاق، وهذا أظنه ينسحب على مقامات عصر الصفدي، التي تحررت من الراوي التقليدي والبطل، وقد تحررت كذلك من موضوعات الكدية والأحاجي، أي نالها التجديد في الشكل والمضمون، وهذا أمر طبيعي يحدث لكلِّ لون من ألوان الحياة وليس الأدب خاصة.

فنون نثرية أخرى:-

من الفنون النثرية التي لا تندرج تحت الرسائل الديوانية، ولا الإخوانية، كتب التقاريض لبعض المصنفات، وفي ذلك يقول القلقشندي: «قد جرت العادة أنه إذا صنف في فن من الفنون، أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها، أو نحو ذلك أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه، أو قصيدته بالتقريض، والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك»[1].

وفي مثل هذه المكاتبات، يكثر الكاتب من عبارات المدح، والثناء، وبيان فضل ذلك المؤلف، وحاجة الناس إليه، ويبالغ في وصفه، ويجعله في مرتبة لم يلحق شأوها من سبقه في ذلك الفن، ويفصّل القول في موضوع ذلك المؤلَّف، ويبين مزاياه التي تفرد بها عن غيره.

ومن ذلك ما كتبه الصفدي على مصنَّف وضعه الشيخ تاج الدين بن الدرهم[*] الموصلي (٧٦٢هـ) في الاستدلال على أنَّ البسملة من أول الفاتحة وهي: «وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلاّمة، ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه، أصبح ونسبته إليه أشهر علمٍ وأبهر علامة، فاقسم ماسام الروض حدائقه ولاشامَ أبو شامة بوارفه، كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة، وكل التصانيف تقول أمامه: بسم الله، كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه، وكم فيه من حجة يكلُّ عنها الخصم؛ لأن عقله على محك النقد يعرضه، قد أيد ما ادّعاه بالحديث والأثر، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر، لقد سُرّ الشافعي بنص قوله الذي هذَّبه، وجعل أعلام مذهبه مذهبه، وأتى فيه بنكت تطرب من أسرار الحرف، وفوائد عرف بها ما بين ابن الدرهم وبين البوني من البون في تفاوت الصرف»[2].

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/٣٧٨.

(*) جاء في أعيان العصر الدُّرَبهم انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/٥٢١.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/٣٧٨.

ففي هذه المكاتبة عرض الكاتب إلى تقريظ ذلك المصنف، وبيّن شهرته بين العلوم، وأشار إلى تفرّده عن غيره، وأظهر تفوقه على ما سواه من مصنفات لأجلّ العلماء، لا بل أقرّوا له بالسبق؛ وذلك لما فيه من الأدلة، والبراهين التي لا يقوى أحد على نقضها.

ومن ذلك ما كتبه الصفدي كذلك في تقريظ قصائد نظمها الخياط الدمشقي، محمد بن يوسف (٧٥٥هـ) في قاضي القضاة، جلال الدين القزويني، وأولاده ومنها:

«وقفت على هذه القصائد التي تدبّجت، والمدائح التي طاب ثناؤها فتأرّجت، والقوافي التي ما لوت جيدها إلى غير شاعرها ولا عرضت، فألفيتها قيد النواظر، وتنزهت منها في روضة أخملت الخمائل النواضر، وعلمت أنها تحفة القادم وزاد المسافر(*) وحضرة المحاضر، لو عقل الناس تلعّبها بالمعاني وفتونها؛ لعلّقوها على كعبة مجاميعهم فقد علّقت العرب دونها...»[1].

وفي مثل هذا اللون من المكاتبات، يظهر الكاتب ألواناً من عبارات المدح، وذلك من خلال الوصف الرائق، ومقارنة ذلك المؤلف مع أنداده، والإقرار بتفوقه، ففي الفقرات السابقة من المكاتبة، يفضل الكاتب تلك القصائد على المعلقات، ويرى بأن تلك القصائد أولى بالتعليق من معلقات العرب في الجاهلية، وهو بهذا يجعلها أعلى مرتبة من المعلقات، وهي كذلك تضاهي أنفس مؤلفاتهم كتحفة القادم وزاد المسافر، ولا يخلو هذا اللون من المكاتبات من المبالغة، إلا أن هذه المبالغة قد تجدي نفعاً، وذلك من خلال تحفيزها للأديب، أو العالم في شحذ همته، لطلب العلم، والتعمق فيه.

ولكون الصفدي مكثراً من تبادل المؤلفات مع أدباء عصره؛ فقد كثرت لذلك تقريظاته، ومن ذلك تقريظه على تخميس البردة، للقاضي علاء الدين أبي الحسن الغزي

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٣٦٣.

(*) تحفة القادم لأبي عبدالله بن الأبار ت(٦٥٨هـ) ألفه في معارضة زاد المسافر لابي بحر صفوان بن ادريس (ت٥٩٨هـ). انظر حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٣٧٢ و ٢/ ٩٤٦.

الشافعي (٧٤٧هـ) جاء منه: «وقفت على هذا التخميس الذي طُرِّز طرسه، وسقي الفضل غرسه، وجلا للعين عرسه، ونوّع في البديع جنسه، ونوّل أهل الأدب أنسه، وساق إلى طيبة بأحمال المدائح عنسه، فرأيت أسرار البلاغة فيه فاشية، وأبكار الفصاحة كيف غدت في خدور السطور ناشية»[1].

ومن الفنون الأخرى التي تخضع للرسائل بنوعيها كتب الصداق، وعنها يقول القلقشندي: «جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان، أو ولده، أو بنته، أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن يكتب له خطبة صداقٍ تكون في الطول، والقصر، بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك، وتقصر لمن دونهم بحسب الحال»[2].

ومثل هذه المكاتبات تبدأ بخطبة يذكر فيها الكاتب كثيراً من ألفاظ النكاح ومستلزماته، وبعد الخطبة يشرع في ذكر الهدف، وهو الزواج، فيكثر من عبارات الحث عليه، والترغيب فيه، وبيان رأي السنة الشريفة في تحليله، ونبذ ما سواه من سفاح، وغيره.

وقد أنشأ الصفدي نسخة صداق للقاضي بدر الدين خطيب بيت الآثار، على بنت شمس الدين الخطيب من بيت الآثار، وفيها يقول: «الحمدُ لله الذي زيَّن سماء المعالي ببدرها، وأنبت في رياض السعادة يانع زهرها وألهم ذوي الهمم أن يبذلوا في الكرائم غوالي مهرها، نحمده على نعمه التي حلّلت ما ضفا من لباسها، وسوّغت ما صفا من رضاب كاسها، وخصّنا بما عمّت به من أنواع أجناسها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أعلمنا في الإيمان نصها بالآداء، وبنى اسمها على الفتح كما فتح المضاف في النداء، ورفع خبرها إمّا على رأي الرواة للشهرة وإمّا على رأي النحاة بالابتداء، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرع النكاح، لهذه الأمة ومنع السفاح،

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٣٧٦.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ٣٤١.

فلم يكن أمرنا علينا غمة. . .

وبعد فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم وفضائل الشرع الذي لا زال شرفه بدراً بين مشرفات النجوم وهو مخيم، به يحفظ النسب الشرود، ويرعى عهد القرينة الولود والودود، . . .

وكان فلان ممن أشبه أباه، . . . أراد إحصان فرجه، وأن تُنزّل الزهرة مع بدره في برجه، . . . فلذلك رغب إلى المجلس العالي (المسمى)، وخطب الجهة المصونة المحجبة النقية، العفيفة، الخاتون، غصن الإسلام، شرف الخواتين، جمال ذوات الستور، قرة عين الملوك والسلاطين السيدة، . . .»[1].

ففي الخطبة تتجلى عبارات النكاح، ودواعيه، والحث عليه، مدعمة بالسنة النبوية المطهرة، فمن الألفاظ التي تتعلق بهذا الموضوع: المهر، النكاح، السفاح، الولود الودود، البضاع.

وقد ركز الكاتب كذلك على محاسن الزواج، وذلك من خلال صون الشخص لجوارحه من الانزلاق في مهاوي السفاح، ولا يغفل الكاتب كذلك عن ذكر الخاطب، وبيان مركزه، وعلو همته، ورفعة أصله، وسمو أخلاقه، وفي الوقت نفسه يبين صفات المخطوبة، ويركز على ما تتصف به من جمال وعفّة.

وللصفدي من كتاب آخر في هذا الموضوع ما نصّه: «فإن النكاح من مزايا هذه الأمة ومحاسنها التي تجلو بأنوارها الحنادس المدلهمّة والسنة بذلك طافحة، وفي كل مكان منها نافجة نافخة، فمن ذلك ما هو في بيانه ووضوحه كالعلم، وهو قوله عليه السلام: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم»[2].

وفي هذا النوع من المكاتبات يظهر الكاتب براعته في التلاعب بمفردات اللغة

---

(١) المصدر السابق، ١٤/٣٥٩-٣٦١.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٢٦١.

وعلومها، وقد ظهر ذلك جلياً في نسخة الصداق السابق، وذلك حينما استخدم الصفدي عبارات النحو، من مثل «وبنى اسمها على الفتح كما فتح المضاف في النداء، ورفع خبرها إمّا على رأي الرواة للشهرة، وإمّا على رأي النحاة بالابتداء»[1].

ولم يقتصر الكاتب في إظهار قدرته وإبداعه على مصطلحات اللغة والنحو، بل يظهر ذلك من خلال سبكه للعبارات، وإظهار ما لديه من بيان وبديع.

---

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤/ ٤٣١.

الفصل الثالث

الدراسة الفنيّة لنثر صلاح الدين الصفدي

في هذا الفصل أرتأيت أن أتناول نثر الصلاح الصفدي من الناحية الفنية، فقد درسته من وجهة نظر حديثة حيث تعرضت للتناص بأشكاله الدينية والتراثية، ودرست كذلك الفنون البديعية- لا سيما- وأنه أولع بها في نثره، وقد شملت الدراسة كذلك لغته وأساليبه.

التناص وتوظيف الموروث:-

يعد التناص أو تداخل النصوص من أحدث المناهج النقدية، وكاد أن يجمع الباحثون في حقول النقد الأدبي على أن الكاتبة الفرنسية جوليا كرستيفا رائدة هذا المنهج، وذلك من خلال عدة بحوث لها كتبتها بين عامي (١٩٦٦-١٩٦٧م)[١].

وتعرّف جوليا كرستيفا التناص على أنه «النقل لتعبيرات سابقة ومتزامنة، وهو اقتطاع أو تحويل»[٢] وقريب من هذا ما يراه رولان بارت، حيث يرى «أن كل نص هو نسيج من الاقتباسات، والمرجيعات، والأصداء، وهذه لغات ثقافية قديمة، وكل نص(الذي هو تناص على نص آخر) ينتمي إلى التناص فالاقتباسات التي يتكون منها مجهولة المصدر، ولكنها مقروءة فهي اقتباسات دون علامات تنصيص»[٣].

ويستخلص محمد مفتاح تعريفاً لمفهوم التناص من خلال دراسة آراء الباحثين، من أمثال كرستيفا وآرفي ولورانت ورفاتير على أنّهم كما يزعم لم يصوغوا تعريفاً جامعاً للتناص- فيقول: «أن التناص هو تعالق(الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[٤].

---

(١) انظر الزعبي، أحمد، **التناص نظرياً وتطبيقياً**، إربد، مكتبة الكتاني، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٩.
المديني، أحمد، **في أصول الخطاب النقدي الجديد**،دار الشؤون الثقافية، العراق، بغداد، ط٢، ١٩٨٩م،ص١٠٢.

(٢) الزعبي، أحمد، **التناص نظرياً وتطبيقياً**، ص٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٩.

(٤) مفتاح محمد، **تحليل الخطاب الشعري**،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م،ص١٢١.

أما محمد بنيّس فيرى أن التناص، هو النص الغائب، ويرى أنَّ النص الشعري هو بنية لغوية متميزة، وليست منفصلة عن العلاقات الخارجية بالنصوص الأخرى، وهذه النصوص الأخرى هي ما يسميها بالنص الغائب، ويرى أن النص الشعري عبارة عن شبكة تلتقي فيهاعدة نصوص، لا تقف عند حد النص الشعري بالضرورة؛ لأنه يراها حصيلة نصوص كبيرة، إذ يختلط الحديث بالقديم، والعلمي بالأدبي، واليومي بالخاص، والذاتي بالموضوعي [1].

ويذكر عبد النبي اصطيف أن الإنسان قارئ قبل أن يكون كاتباً، فنحن نقرأ ما تيسر لنا من نصوص في مراحل تكويننا الثقافي، والقارئ أيضاً يقرأ نصوصاً مختلفة، والكُتّاب عندما ينشئون النصوص الخاصة بهم ينطلقون في إنشائهم إليها من ضمن نصوص سبق لهم أن تمثلوها، وهذه النصوص تتداخل وتتفاعل فيما بينها، وينفي بعضها الآخر حتى تخرج النص الجديد [2].

ويوسع جعفر العلاق في تعريفه لمفهوم التناص عندما يقول «أن التناص لا يقصُر حركة النص على النصوص الأخرى فقط بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصيّة كثيرة، فقد يكون التناص إيماءة مباشرة، أو غائمة إلى عمل كامل، أو مجتزأ، وقد يكون كذلك تلميحاً إلى شخصية، أو مكان، أو حادثة» [3].

ويعرف أحمد الزعبي التناص بقولة: « التناص في أبسط صوره يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس، أو التضمين، أو التلميح، أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص، أوالأفكار مع النص الأصلي، وتندغم فيه لتشكل نصاً جديداً واحداً متكاملاً» [4].

---

(١) انظر بنيّس، محمد، **ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب**، دار التنوير، بيروت، ص٢٥١،ط٢، ١٩٨٥م.

(٢) انظر: اصطيف، عبدالنبي، **التناص، ظاهرة قديمة**، راية مؤتة، ج٢ ع٢، ص٥٠-٥٤.

(٣) العلاق، جعفر، **الشعر والتلقي (دراسات نقدية)**، دار الشروق، ص١٣٢، ط١، ١٩٩٧م.

(٤) الزعبي، **التناص نظرياً وتطبيقاً**، ص٩.

ويرى الزعبي أن التناص ليس جديداً وإنما هو موضوع له جذوره في الدراسات النقدية شرقاً وغرباً، ولكن تحت مسمّيات ومصطلحات أخرى عديدة، فالاقتباس، والتضمين، والاستشهاد، والقرينة والتشبيه والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم تدخل في مفهوم التناص بصورة الحديثة [1].

وبما أن نثر الصفدي كثر فيه الاقتباس، والاستشهاد، والتضمين، وحلّ المنظوم والأمثال، يرى الباحث أن يستخدم مصطلح التناص بدل تلك المسميات، إلا أن التناص هنا يندرج تحت ما يسمى التناص المباشر، إذا يقتبس النص بلغته التي ورد فيها، مثل الآيات، والأحاديث، والأشعار، والقصص [2]. إلا أن نثر الصفدي لا يخلو من بعض الإشارات إلى التناص غير المباشر، الذي يعتمد الأفكار والاشارات الخفية.

(تناص آيات القرآن الكريم).

النص القرآني يمثل في أذهان الكتاب المثل الأعلى في صياغته، ومعناه، وفصاحته، وبلاغته، لذا نراهم يكثرون من الأخذ منه وإدراجه في كلامهم؛ ليزيده حكمة وجمالاً، والصفدي واحد من هؤلاء الكتاب وظّف الكثير من الآيات في نثره، وكان توظيفه لهذه الآيات يغلب عليه أمران، أحدهما: أخذ نص الآية وإضافتها إلى كلامه، وثانيهما: أخذ بعض مفردات الآية محدثاً التقديم، والتأخير، والحذف، والزيادة، وإدماجها في سياقه، وكلا الأمرين لا يخرج عن التناص المباشر لآي الذكر الحكيم ، ومن ذلك ما جاء في توقيع بالحسبة: « ولا يزين الإنسان مثل تقوى الله فإنها واسطة العقود في الصفات المحمودة، وزينة الوجود في السمات المشهودة، تصدق يوم القيامة إذا كذبت الظنون، وتنفع يوم لا ينفع مال ولابنون[3] . في هذه الفقرة تناص من الآية الكريمة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾[4] والكاتب هنا يشرع في ذكر الوصايا

---

(١) انظر المرجع السابق، ص١٥.

(٢) انظر المرجع نفسه، ص١٦.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٢٦١.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٨٨.

التي يجب أن يأخذ بها صاحب الحسبة، فتقوى الله من الصفات المحمودة، وتقي الإنسان من الهلاك، ولمّا كان ذلك المنصب ربّما يغري المرءَ ويزيّن الباطل لديه، رأى الكاتب أن يذكّر المولّى بهذه الآية، التي تنقله إلى مشهدٍ حيٍّ ، وهو يوم القيامة.

والكاتب هنا نصٌّ على الآية كما وردت في القرآن الكريم نصّاً ودلالةً ، إلا أنها في النص توحي بالنصيحة المشوبة بالتحذير.

ومن ذلك ما كتبه في تحرك ركب السلطان «ورد المثال العالي يتضمّن حركة الركاب الكريم إلى الأبواب الشريفة فكاد قلب المملوك لتلقيه يطير فرحاً، ويميد عطف الزمان ومن فيه مرحاً، ويكون يوم قدومه يوم الزينة «وأن يحشر الناس ضحىً»[1].

في هذه الفقرة تناصٌّ من الآية الكريمة ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضُحىً﴾[2]، ومناسبة هذه الآية شهود جمع سحرة فرعون لتحدي موسى عليه السلام، وذلك في يوم الزينة؛ لكي يجتمع نفرٌ كثير، وتناص الكاتب لها هنا ينزاح عن دلالتها في النص القرآني، فهو يوظّفها لتدلّ على حشد عدد من الناس لمشاهدة ركب السلطان، والاحتفاء به، وليس التشفي من موسى عليه السلام، ونُصرة السحرة، إلا أنَّ المعنى العام للآية يدل على حالة الزهو والفرح، فهو يوم الزينة وفي النص تحرّك ركب السلطان بقصد الزيارة ، فكلا الأمرين يدل على الفرح والسعادة.

ومثل ذلك ما جاء في توقيع بنظر دار الطراز:

«. . . . ركوناً إلى كفايته التي يزيد جمالها، ويزين ويعيد جلالها، ويبيد كل فضل سواها ويبين ، ويستحق بمكانتها أن يقال له «إنك اليوم لدينا مكين أمين»[3].

هنا تناصٌّ من الآية ﴿فلما كلّمهُ قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين﴾[4]، يبيّن

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٣٢٩.

(٢) سورة طه، الآية ٥٩.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٢٥١-٢٥٢.

(٤) سورة يوسف، الآية ٥٤.

الكاتب مكانة المولَّى أمْر نظر دار الطراز ، فقد توفرت فيه من الخصال ما جعلته مؤهلاً لترتيبه فيها.

وتناص الكاتب لهذه الأية يوحي -ولو من طرفٍ خفي- بمدح المولِّي ، فهو يختار بدقة وعناية لوظائفه ، فالعزيز لم يقرّب يوسف عليه السلام إلا بعد أن سمع كلامه، وتبيّن من حكمته وسداد رأيه.

فالمعنى الذي أضافته الآية للنص يكمن في الاختبار، والتحقق من الشخص الذي يراد توليته، فدلالة الآية في النص والسياق القرآني واحدة.

ومن هذا القبيل ما كتبه استدعاءً:

«. . . سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فرق فرقدها ، حتى أبرز كلامه جنان فضل جنان من بعده عن الدخول إليها جبان، وأتى ببراهين وجوهٍ حورها «لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌّ» وأبدع خمائل نظم ونثر»[1].

في هذه الفقرة تناص من الآية ﴿لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ﴾[2]، وهو يتحدث عن فصاحة الشيخ الذي يطلب منه الإجازة، فهو ملك الفصاحة، لا يجاريه فيها مجارٍ، وأتى ببراهين لم يسبق إليها من أهل الأدب، والآية هنا توحي بالسبق، فالحور لم يسبق المؤمنين إليها أنسٌ ولا جانٌّ، مثلما أن الشيخ المُجيز سبق إلى المعاني، وطرقها قبل غيره، فالآية لم تخرج عن السياق العام القرآني، وهي قضية العذرية ، إلا أنَّ الكاتب وظّفها لتخدم قضية أدبية، وهي سبق شيخه إلى فض ختام بكريّة بعض المعاني ؛ ليؤكّد تفرده في مجال الأدب نظماً ونثراً.

ومن تقليد بولاية قاضي القضاة «فلا يولّي من يراه فقيهاً وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها» ولا من اتصف بالجهل ورأى زينة المال والأهل[3].

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٣٤١.

(٢) سورة الرحمن، الآية ٥٦.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٦٠٢.

هنا تناصٌ من الآية ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ [1] فهو يحذّر من تولية منْ لا يقدّر المسؤولية، بل ومنْ يتظاهر بالصلاح، فالمظهر دون الاختبار لا يكفي لتولية المرء بعضاً من أمور الناس، فالآية تصف لوناً من البشر يتظاهرون بالصلاح، ولكنهم لا يعملون إلا الفساد، فتوظيف الكاتب للآية يحتمل تذكير المقلّد، وتحذيره من أن يقع في خداع هؤلاء الناس. فالآية بقيت أسيرة السياق القرآني، وهي في نصّ الكاتب.

وهناك تناص آخر في النص ، وهو من الآية ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [2] وذلك في عبارة زينة المال والأهل، وهذا النوع من التناص يعمد الكاتب فيه إلى أخذ بعض مفردات الآية ويدمجها في كلامه، إلا أنها تظل ظاهرة في سياقه، فلا تتجاوز التناص المباشر، ومن ذلك ما جاء في حركة الركاب السلطاني « ولا زال مقامه الشريف بالتحف ملتحفا، ومجده المؤثّل بأزاهر المحامد روضه أنفاً، وركابه العالي إذا سار أخذت الأرض زينتها ولبست زخرفا» [3] .

في هذا السياق تناص من الآية ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ [4] فقد أدرج بعض مفردات هذه الآية في سياق كلامة؛ ليدل على مرافقة الخير والبركة لسير حركة الركاب السلطاني.

والناظر في هذا التناص يرى توافقاً عجيباً بين السياق النصي للآية بعد توظيفها والسياق القرآني، فالكاتب يمدح السلطان، ويرحب به، ويجعل حلوله في تلك البلد جالباً الخير والبركة، والآية كذلك تحمل ذلك المعنى من خير ورزق وفير، فضلا عما في الصورة من زينة وزخرف من نبات وأزهار.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الكهف، الآية ٤٦.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣٢٩/٤.

(٤) سورة يونس، الآية ٢٤.

ومن هذا القبيل ما كتبه توقيعا بنقابة الأشراف:

«فهو بيت النبوة الذي أذهب الله عنه الرجس، وطهّره وأعلاه على كلّ ذي شرف باذخ وأظهره، وفرعه من شجرة أصلها ثابت من أبي القاسم كما حرره النقل والنقد وفرعها في السماء»[1]

يظهر في هذه السطور تناص من الآية ﴿كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء﴾[2] والكاتب هنا يبين فضل آل البيت على من سواهم، وهو ينص كذلك على عراقة أصلهم، وسمو أخلاقهم، فهم كشجرة ثابتة الأصول، سامية الأغصان، إلا أن الآية في سياقها القرآني تصف الكلمة الطيبة، فالكاتب تصرّف في ألفاظها بقصد أو بدونه، كماأنه تصرّف في مدلولها، فجعلها تدل على عراقة الأصل، وسمو الأخلاق.

ومن ذلك أيضا ما كتبه توقيعا بمشيخة دار الحديث النورية: «ولينزل الطلبة منزل البنين في الحنو عليهم عند الهفوة... ويجعل عليهم حسن وجه الإقبال، وإذا كان المؤمنون أخوة فيوسف أحسن الأخوة حتى يوضح لهم ما أبهم من الأسانيد المظلمة»[3].

في هذا السياق تناصٌ من الآية ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا﴾[4] وفي هذا الجزء من التوقيع يوصي الكاتب المولّى، وهو الشيخ يوسف بن عبد الرحمن المزي، أحد شيوخ الصفدي ببعض الوصايا، ويجعل في سياق حديثه عبارة فيوسف أحسن الإخوة، وهو تناص وإشارة إلى الآية السالفة الذكر، إلا أنه حوّر في المعنى لتوافق ما يريده من بيان صفات صاحب التوقيع.

فالمعنى الذي تدل عليه الآية في سياقها القرآني غيْرة إخوة يوسف عليه السلام منه؛ لتمكنه من قلب أبيه، إلا أن المعنى الجديد لها في سياق التوقيع، يشير إلى أفضلية المولّى على غيره، ممن ينافسونه على تلك الوظيفة.

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/-٣٥١-٣٥٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٢٤.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٦٥٦-٦٥٧.

(٤) سورة يوسف، الآية ٨.

ومن رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه:

"فبللت برؤيته غلّة الظمأ البرح، وعاينت ما شاده من بنيان البيان، فقلت لبلقيس عيني ادخلي الصرح»[1].

هنا تناص من الآية ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجّة﴾[2] والتناص هنا في غاية اللطافة، فلم يأخذ الكاتب من نص الآية سوى "ادخلي الصرح" وأضاف كلمة بلقيس، والتي تشير إلى ملكة سبأ صاحبة القصة، والكاتب يوظف لنا هذه القصة، لتدل على براعة صديقه في البيان، فقد أشبه بيانه صرح بلقيس الذي أنكرته، فجعل من عينه بلقيس، وأمرها بالدخول إلى ذلك الصرح، والدخول هنا يعني التأمل في بديع بيان صديقه وفصاحته، فهنا يمكن أن يلحظ المرء دلالة لهذه الآية تبتعد عن دلالتها الأصلية، فقد استطاع أن يظهر إعجابه من بيان صديقه من خلال شحن عبارته بقصة بلقيس وصرحها مع سليمان عليه السلام.

والناظر في توظيف الصفدي لآي الذكر الحكيم في نثره في كلتا حالتيه: الحفاظ على الآية نصاً ومعنى، أو حل مفرداتها، يجد المعنى في الإطار العام لا يخرج في الغالب عن المعنى في السياق القرآني، وعندما يحوّر المعنى لا يفعل ذلك إلا إذا استدعى ذلك الغرض الذي يتحدث عنه، فهو يأتي بهذه التناصات سواء كانت عن قصد أم بغيره ليدعّم فكرة في ذهنه.

تناص الحديث النبوي الشريف

لا يختلف تناص الحديث عند الصفدي عن تناص آيات القرآن، إلا أن تناصه للحديث لا يصل إلى الكثرة التي وجدت في الآيات، وربما يعود هذا الأمر لقداسة النص القرآني.

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٢٣٩.

(٢) سورة النمل، الآية ٤٤.

ومن ذلك ما كتبه منشوراً بأمره أحد وأربعين رمحاً:

«وقد اقتضت آراؤنا الشريفة تغيير اقطاعه ليقوى حزبه على الحرب، وينتفي من يكون أمامه من أبناء الطعن والضرب، وتمرح به كُمت الجياد في الأرسان، . . . فالفتوح تيسّر للدين القيم بالحتوف والجنة كما قال صلى الله عليه وسلم تحت ظلال السيوف»[1] في هذه الفقرة تناصٌ مباشر للحديث الشريف «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[2].

فالمقام الذي يتحدث فيه مقام حرب وطعان، فمن يريد النصرة في الحرب لا بد من اهتمامه بقادته وجنوده، فموضوع المنشور الإقطاع، ولما كان من مستلزمات الضرب والطعن التعبئة المادية، وهي هنا زيادة إقطاعه، تداعت إلى فكر الكاتب التعبئة المعنوية المتمثلة في ثواب المجاهدين يوم القيامة، فلذلك وظف الحديث الشريف لخدمة هذه القضية، وزيادة على ذلك ذكره كاملاً ونصّ على عبارة "كما قال ﷺ" فهذه العبارة توحي بالحث، والتحريض على الشهادة في سبيل، وتناصه للحديث على هذه الصورة يدل على أهمية الحديث، فمفردات الحديث قليلة لكنّها جامعة، وإذا حذف منها شيئاً ربما لا تؤدي الغرض الذي يرمي إليه.

ومن تناصاته للحديث الشريف ما كتبه بنقابة الإشراف وجاء منه: «. . . فبصّرهم المحجة، ولقنهم الحجة، وأقل الأقسام الإمساك عما لا عاصروه ولا عالجوا جرحه المؤلم، ولا شاهدوا فتنه التي كانت كقطع الليل المظلم»[3].

في هذا السياق تناصٌ إلا أنه أدخل في التناصية من التناص السابق؛ وذلك لعدم ورود الحديث كاملاً، بل اكتفى الكاتب بتوظيف الجزء الذي رآه مهماً، لذا فقد أدخل

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٣٨٧.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، **صحيح البخاري**، طبعة الأوفست، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٣/٢٠٨.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/٣٥٥.

مفردات الحديث في سياق كلامه دون الإشارة إلى ذلك، والحديث هو «تكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا»[1].

جاء توظيفه هذا الحديث في معرض كلامه عن النُّصح لنقيب الأشراف، فهو يذكره بكثرة الفتن التي تحدث في أوساطهم عن أمر الخلافة، فالكاتب يحذر النقيب من الخوض في مسألة الأحقية في تولي الخلافة، وهذه قضية مختلف عليها قبل عصر الصفدي، فكان توظيفه الحديث تحذيراً من الانزلاق في فتن جديدة قد تحدث للمسلمين، ولما كان هذا الحديث من علامات يوم القيامة، يرمي الكاتب إلى إشعار النقيب من خلاله بحساسية موقعه، وخطورته، ومن ناحية أخرى في توظيف الحديث، يلحظ إدماجه في كلام الكاتب حتى كأنه منه لا ينفصل عنه.

ومن تقليد بولاية قاضي القضاة جاء منه «فلا يولي من يراه فقيهاً «وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها»(*) ولا من اتصف بالجهل، ورأى زينة المال والأهل، بل يتحرّى من أمورهم ويتبع معاملتهم في غيبتهم، وحضورهم، فأنت بما إليه الأمر يؤول، وكلكم راعٍ وكل راع مسؤول»[2].

في هذا الجزء من التقليد تناص من الحديث الشريف: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته والأمير راعٍ والرجل راعٍ في بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[3].

وفي هذا السياق يقدم الكاتب وصية للمولّي بأن لا تخدعه مظاهر الشخص،

---

(١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، **سنن الترمذي**، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤/ ٤٢٣.

(*) سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٦٠٢.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، ٦/ ١٥٢.

وادعاؤه الصلاح، بل عليه تحري الدقة في الاختيار، وفي الوقت ذاته يذكره بمسؤوليته عن كل ما يحدث ممن هم تحت إمرته.

وقد تصرف الكاتب في بعض ألفاظه؛ لتوافق سجعاته إلا أن الحديث ظل محافظاً على معناه العام، وهو تحمل المسؤولية وإعبائها.

وفي هذا الموضوع يرى الناظر أن الكاتب يوظف الحديث الشريف مع المحافظة على المعنى العام له، إلا أنه قد يحوّر ويغير في بعض ألفاظه" لخدمة قضية معنوية، أو لفظية، كقصر الحديث على فئة دون غيرها، ومثال ذلك تناصه السابق حيث كانت الفئة المراد تحذيرها من يتولون بيت المال، وفي التناص السابق له الفئة المستهدفة الأشراف ونقيبهم.

أما القضية اللفظية التي تحكم الكاتب فهي مجاراة ألفاظ الحديث لعباراته المسجوعة، فهو يحذف ويؤخر ويقدم من أجل إقامة السجعة، ومثاله تناصه للحديث السابق.

تناص الشعر "حل المنظوم"

أكثر الصفدي من تناصه لحلّ المنظوم لرواجه في عصره، فيقول شيخه الحلبي في هذا الأمر: «وكيفية الحل أن تتوخى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه، ثم يرتب تلك الفرائد وما شابهها ترتيب متمكّن لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالب، وأصحّ سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة»[1].

ومن تناصه للشعر، ما كتبه مشتاقاً إلى ابن سيد الناس «فما كل كاتب يده فم، ولسانه فيه قلم، ولا كلّ متكلّم حُسْن بيانه تأتم الهداة به كأنّه علم»[2].

يظهر في كلامه تناصٌ من بيت الخنساء:

أغرُّ أبلج تأتم الهداة به كأنّه علم في رأسه نارُ[3]

وقد وظف الكاتب بعض مفردات هذا البيت بعد حلّه، وكان من الملاحظ على توظيفه، أن البيت قيل في موضوع الرثاء، فالخنساء قالته في تأبين أخيها صخرٍ إلا أن الكاتب جعله في معرض حديثه عن المدح، ولا يرى الحلبي في ذلك بأساً حيث يقول: «وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء، فإن كان نسيباً، وتأتّى له أن يجعله مديحاً، فليفعلْ»[4].

فالكاتب نقل معنى البيت من مقام الرثاء إلى المدح، وفي الوقت ذاته استطاع أن يجعل المفردات التي اجتزأها من البيت تدخل في سياق كلامه، وتنضوي تحت نظام سجعاته.

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٥/ ٢٤٠.

(٣) الخنساء، تماضر بنت عمرو (٢٤هـ/ ٦٤٤م) الديوان، تحقيق أنور أبو سويلم، جامعة مؤتة، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٨٦.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ص٣٢٦.

ومن الأمثلة كذلك ما كتبه توقيعاً بالخطابة فجاء منه:

«لأنه في هذا العصر بحمد الله تعالى أفضل من عفَّ ومن برَّ، وأفصح خطيب لو كُلِّف مشتاق فوق ما في وسعه لسعى إليه المنبر»[1].

في هذه الفقرة تناص من بيت البحتري:-

فلو أن مشتاقاً تكلَّف غير ما في وسعه لمشى إليك المنبر[2]

يتحدث الكاتب في هذا التوقيع عن تعيين خطيب، ولذا تداعى إلى ذهنه بيت البحتري لما فيه من ذكر للخطيب، فالكاتب يمدح المولَّى عندما نصَّ على بعض مفردات هذا البيت، علما بأنّ البيت كان في مدح الخليفة المتوكل، لذا فقد حافظ الكاتب على معنى البيت في سياق حديثه، والناظر هنا يرى الكاتب لم يغيّر كثيراً في ترتيب مفردات البيت سوى تغييره للضمائر، فقد نقل الحديث من المخاطب إلى الغائب، زيادة على بعض الحذف والتقديم.

ومن ذلك ما كتبه توقيعاً بتوقيع صفد: «رسم بالأمر العالي لا زال يزيد بدور أوليائه كمالاً، ويفيد سفور نعمائه جمالاً، ويعيد ونور آلائه على من بهر بفوائده التي غدا سحر بيانها حلالاً...»[3].

في هذه الفقرة من التوقيع تناصٌّ من بيت ابن الرومي:-

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرّزِ[4]

فالمكتوب له بالتوقيع بهر بفوائد بيانه، وفصاحته، حتى غدا سحر ذلك البيان حلالاً، فالمعنى الذي يحمله البيت وهو وصف حديث المتغزَّل بها هو المعنى عينه الذي

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٦٢٧.

(٢) البحتري، **الديوان**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط٣، دار المعارف، ، ٢/١٠٧٣.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٤٠٧.

(٤) ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس، **الديوان**، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م، ج٣/ ص١١٦٤ .

تتضمنه عبارة الكاتب، إلا أن الكاتب وصف بيان ممدوحه، لذا فإنه نقل المعنى من الغزل إلى المدح، وعلى الرغم من تركه لكثير من ألفاظ البيت إلا أن المعنى بقي محافظاً عليه، وظهر ذلك من خلال زيادته بعض الألفاظ التي تخدم ما رمى إليه الكاتب، وفي هذا الشأن يقول الحلبي: «وإذا أراد الحلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنه»[1].

ومن الأمثلة على التناص ما جاء في التوقيع ذاته:

«والفاضل الذي ألقى إليه فضل الرسن، ومج السهاد فم جفنه وغيره قد ذرّ الكسل فيها فترة الوسن، وبهر في مذهبه... والخطيب الذي يعلو صهوة المنبر فيعرفه وإن لم يضع العمامة»[2].

ويلحظ هنا تناصٌّ من البيت المشهور:-

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني[3]

فالكاتب أراد أن يبرز موقّعه، فجعله أعظم قدراً من الحجاج وسحيم (*) قائل البيت، فهما يعرفان عند وضع العمامة، بينما موقّعه يعرف دون أن يضعها، وهذا ظاهر من خلال قلبه لدلالة البيت، وذلك بنفيه الذي أحدثه في توظيفه لبعض مفردات البيت، وعكسه للمعنى لغرضٍ، وهو تفرّد ممدوحه عن غيره، وربما فعل ذلك لئلا يربط صورة ممدوحه بصورة الحجاج، الذي عرف بتسلّطه وجبروته، فعكس معنى البيت ليدلنا على أن ممدوحه لا يتصف بصفات الحجاج الممقوتة.

ومن الأمثلة كذلك ما كتبه توقيعاً بالتدريس:-

«... ويوضح أحوال الرواة الذين سلفوا، فليس ذاك بعيب وما لجرح بميت إيلام،

---

(١) الحلبي، **حسن التوسل**، ٣٢٦.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٤٠٨.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (٩١١هـ)، **شرح شواهد المغني**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج١، ص٤٥٩.

(*) سحيم بن وثيل الرياحي شاعر مخضرم، انظر: الجمحي، محمد بن سلام (٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، شرحه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ج٢، ص٥٧٦.

ويتم بما اطّلع عليه من تدليس فما أحسن روضة هو فيها تمام، ويسرد تراجم من مضى من القرون التي انقضت فكأنها وكأنهم أحلام»[1].

هنا يظهر تناص لبيت المتنبي وآخر لبيت أبي تمام:

فالتناص الأول من بيت أبي الطيب المتنبي:-

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرحٍ بميـــتٍ إيـــلام[2]

يوظف الكاتب هذا الجزء من البيت ليدل على أن من تولّى أمر قضية معينة فعليه أن ينصح لها، ولا يحابي، ولا يخشى في قول الحق لومة لائم، فالكاتب يوصي المدرِّس بأن يتحقق من أحوال الرواة السابقين، وإظهار ما أفسدوه في أمر الأحاديث، ويكشف كذلك سقطاتهم ويظهرها عليهم؛ لأن هذا الأمر لا يحتمل الصبر عليه، لذا أنزلهم الكاتب منزلة الميت الذي لا يشعر بمن يطعنه، وذلك لتغافلهم عن سلوك الجادة.

وفي الفقرة تناص آخر، وهو من بيت أبي تمام:-

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنّهم أحلام[3]

ففي حديثه عن تراجم القرون السابقة، ومعرفة أحوالهم ، تداعى لذهنه انقضاء القرون وأهلها، فأدخل بعض بيت أبي تمام؛ ليدلل على رأيه.

ومن كتاب ببشارة النيل:

«وشرب دم المحل فهو من تحت حبات القلوع كالقهوة، واتصف بصفات الأولياء، فبينما هو في أقصى الجنوب إذا هو في أقصى الشمال، والأرض للرجل الصالح خطوة، وأصبح في طلب تخليقه مجِّداً، وأعدّ للجدب من تياره سابغة وعدّاء علندى»[4].

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/ ٢٩٥.

(٢) المتنبي، **الديوان بشرح العكبري**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيرت، ج٤، ص٩٦.

(٣) أبو تمام، **شرح الصولي لديوان أبي تمام**، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ج٢، ص١٣٧.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/ ٣٣٠.

في الفقرة السابقة من وصف تيار الماء عند كسر الخليج تناص من قول عمرو بن معد يكرب:-

أعددت للحدثان سا بغة وعدّاء علندى[1]

فالشاعر يفخر بنفسه، ويظهر فروسيته، وشجاعته، بينما الكاتب يوظّفه في تصوير شدة تيار الماء، فالمعنى الجامع بين الأمرين الشدة والصرامة، فالشاعر يصارع نوائب الدهر، ويعدُّ لها العدّة الكفيلة بالانتصار عليها، والتيار المائي كذلك يحارب الجدب والقحط، ويحل الخصب مكانه، فكلاهما يقف في وجه الشُّرِّ وينصر الخير.

ومن مرسوم كتبه بنيابة قلعة صفد:

«وبعد فإن ثغر صفد المحروسة من الحصون المشيدة، والمعاقل الفريدة، قد طاولت النجوم شرفاته، وتلهبت ذبالة الشمس في سراجه، ونفض الأصيل زعفرانه على بياض أبراجه، كم لاثت الغمائم على هامته عمائم»[2].

الناظر في الفقرة يلمح تناصاً من بيت ابن خفاجة:

يلوث عليه الغيمُ سودٌ عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب[3]

وهذه البيت من قصيدة يصف فيها جبلاً" لأخذ العبرة والعظة، فالكاتب عندما أخذ بعض ألفاظ البيت أراد أن يقرّب صورة قلعة صفد العالية من صورة ذلك الجبل الشاهق الصامد على مرِّ العصور، فالكاتب على الرغم من أخذه لمفرداتٍ قلائلَ من البيت، إلا أن المعنى قد بقي حاضراً في ذهنه، فقد شُحِنت تلك المفردات بمعنى البيت.

وفي موضع آخر مما كتبه توقيعاً "ولما خلت الآن هذه الوظيفة السنيّة، والرتبة العليّة العلويّة، من النقيب عماد الدين موسى بن جعفر -قدّس الله روحه- تطاول كلُّ

---

(١) الزبيدي، عمرو بن معد يكرب، **شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي**، جمعه وحققه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٦٣.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/ ١٠٨.

(٣) ابن خفاجة، **الديوان**، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م، ص٢١٦.

عرابة، لتلقي راية مجدها بيمينه»[1].

في هذا السياق يجد القارئ تناصاً لبيت الشماخ بن ضرار:-

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين[2]

وهذا البيت في مدح عرابة بن أوس الصحابي الجليل[*]، ولما كان المقام يستدعي من يسدّ في شغل الوظيفة مسدّ المتوفى، بادر كل من يرى في نفسه الكفاءة، فكل من بادر منهم هو عرابة، والكاتب يرمي من وراء ذلك لإبراز مكانه النقيب؛ حيث إنّه لم يصل إلى تلك الرتبة إلا لتميّزه وثمة ملمح طريف وهو تعدد عرابة في التوقيع، بينما نجد عرابة واحداً في البيت، إلا أن المعنى بقي واحداً وهو المدح.

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٣٥٢.

(٢) الشماخ، **الديوان**، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، ص٣٣٦.

(*) صحابي جليل كان مشهوراً بالجود وله أخبار مع معاوية. انظر: ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر، ج٢، ص٤٧٣.

تناص الأمثال:

بالإضافة إلى تناصه للآيات والأحاديث والأشعار، نجد في نثر الصفدي شيئاً من تناص الأمثال، ولا يتعدى تناصه للأمثال عن تناصاته السابقة في التوظيف، وإدخالها في سياق كلامه، فهو إمّا أن يبقي على المثل كاملاً في سياق حديثه عن قضية ما، أو يأخذ من المثل بعض مفرداته، ولكن مع ضمان الحفاظ على معناه.

وغالباً ما يأتي بتناص الأمثال في حديثه عن الوصايا التي تكون في رسائله الديوانية، ومن ذلك ما كتبه بتوقيع صفد:-

«والوصايا كثيرة، وهو غنيٌّ عن شرحها، مليٌّ بحراسة سرحها، فلا يهدي إلى هجره منها تمرة، ولا يُلْقَن إلى بحره منها دُرّه»[1].

والناظر في هذا الجزء اليسير من التوقيع يجد تناصاً للمثل «كمستبضع التمر إلى هجر» والكاتب أورده هنا لكي يدلل على أن المولّى خبير بالأمور مجرّب لها، لا يحتاج إلى كثير وصايا.

والكاتب عند تناصه لهذا المثل لم يترك من مفرداته إلا اليسير، لكي لا يفقد المثل معناه، والمثل لا يجوز حله إلا بألفاظه؛ وذلك لشيوعه بين الناس، وندرة تردده في الكلام[2].

ومن توقيع بالتدريس:-

«على أنه- أدام الله أيامه- هو الذي يشرّع الوصايا لأربابها، ويعلّم المتأدب كيف يأتي البيوت من أبوابها، وإنما أخذ القلم على نصيبه، وأتى بنكت، ومن علّم العوان الخمرة كانت منه عجيبة»[3].

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٤٠٨.

(٢) انظر ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين ، نصرالله بن محمد الشيباني، (٦٣٧هـ)، **الوشي المرقوم في حل المنظوم**، تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٠٤٩هـ/١٩٨٩م، ص٥٩.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٢٧٤-٢٧٥.

ففي هذه الفقرة تناصٌ للمثل: "العوان لا تُعلَّم الخِمْرة" [1] والكاتب هنا يرفع من قدر المدرِّس، ويجعله في مرتبة أعلى من أن يُنبَّه إلى بعض الوصايا، فكما أن المرأة العاقلة لا تعلم الخمرة، فكذلك ذلك المدرس.

والمثل على قلة ألفاظه إلا أنه يحمل معنى كبيراً، فإدراجه في كلامه يشحنه بذلك المعنى، ويقويّه، ويؤكدّه ما ذهب إليه من عدم حاجة المدرس إلى نصائح، وإرشادات، ووصايا.

وفي توقيع كتبه بنقابة الأشراف:-

«وأنت أيُها السيّد- أعلى الله قدرك- أدرى بهذه الأمور لأنَّك جُهينة أخبارها، وحقيبة أسرارها، التي توجد عند أخيارها دون أشرارها» [2].

هنا يلمح تناص للمثل «عند جُهينة الخبر اليقين» [3] والكاتب يسوق هذا المثل ليبرهن على معرفة المخاطب، ودرايته بالأمور.

ومن اللافت للنظر أن الصفدي يورد الأمثال غالباً في معرض حديثه عن الوصايا، وربما يعود ذلك لأن المثل يحمل معنى كبيراً، مما يغني الكاتب عن كلام كثير، ووصايا جمَّة.

والكاتب كذلك يحافظ على مفردات المثل، وخاصة البارزة منها، وغالباً ما يكون تناصّه للمثل لغرض الاستدلال، وإثبات الحجة التي يعالجها.

---

(١) العسكري، أبو هلال الحسين بن عبدالله (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، **كتاب جمهرة الأمثال**، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٨.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٣٥٥.

(٣) الميداني، أبو الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري، (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٣.

تناص الأعلام والبلدان

أكثر الصفدي كذلك من تناصاته لمشاهير العلماء في نثره، وكان أغلب تناصاته للأعلام يأتي في معرض حديثه عن شخصية متميزة في فنٍّ من الفنون، فعند ذلك يحشد مجموعة من الأعلام المشهورين في ذلك الفنّ؛ ليجعل شخصيته التي يتحدث عنها أعلى مرتبةً منهم.

ومن ذلك ما كتبه استدعاء:-

«. . . والنحوي الذي تركت لمعة الخليل أخفش، وأعرت الكسائي ثوب فخره الذي بهر به سيبويه وأدهش، فأبعد ابن عصفور حتى صار عن مقرّبه، وأمات ابن يعيش لما أخلق مُذهب مذهبه. . . والطبيب الذي تحلّى من أبقراط، وسقط عند درجته سقراط، فالفارابي ألفاه رابياً، وابن مسكويه أمسك عنه محاشياً، لا محابياً، وابن سيناء أنطبق قانونه على جميع جزئياته وكلياته، وطلب الشفاء والنجاة من إشاراته وتنبيهاته»[1].

فالناظر في النص السابق يجد تناصات كثيرة لعلماء نبغوا في فنون مختلفة، والكاتب يرمي من وراء ذكرهم إلى تصور العلوم التي نبغوا فيها من جهةٍ، ومن جهة أخرى إلى تفرّد شيخه عنهم جميعاً.

ومن ذلك ما كتبه إلى أحد أصدقائه:

«يقبّل الأرض حيث ابن مقلة لتلك الكتابة شاخص، والفاضل لذلك الترسل ناقص، والميداني لتلك البلاغة على عقيبه ناكص»[2].

ففي هذه العبارات الموجزة تناصات لبعض الأعلام الذين برزوا في حسن الخط، أو الرسائل، أو البلاغة، فكل منهم على الرغم من شهرته في فنّه، إلا أنّه قد استسلم لما رأى من كتابات صديق الكاتب، التي لا يجرؤ أحدٌ منهم على مسايرتها، وفي ذلك مبالغة ظاهرة.

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٥/ ١٥٥-١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٧٧.

ومن منشور كتبه:

«قد احتكم إلى يمينه السيف والقلم، وانطوى على نشر العلم والعلم، ونقص عند أقوامه زيد الخيل، وشاب من شجاعته عامر بن الطفيل، وعجز ابن عساكر عن حفظه»[1].

والناظر هنا يجد بعض تناصات لمشاهيرَ في أمور مختلفة، ولكنّهم أمام من يتحدث عنه الكاتب يقفون وقفة انكسار، واستسلام؛ لأنه فاقهم ولم يستطيعوا مجاراته في هذه الصفات، وهذا ديدنه عند الحديث عن أيّة شخصية.

ومن توقيع بنظر الجوالي:-

"ومضت له مدة في الشام والسعد يقول: هذا في مصر يكون عزيزاً"[2].

ففي الجزء اليسير المقتبس من التوقيع، يلمح الناظر تناصاً في مفردتي مصر، والعزيز، حيث يقفزان بذهن القارئ إلى مصر قديماً زمن العزيز، فهو أقرب إلى التناصّ غير المباشر.

والكاتب هنا يستحضر قصة يوسف عليه السلام مع العزيز، وذلك كون المولّى في التوقيع يوسف بن أبي بكر.

وجاء في تقريض على تخميس للبردة:-

«وقفت على التخميس الذي طُرِّز طرسه، وسُقِي الفضل غرسه، وجلا للعين عرسه، ونوّع في البديع جنسه، ونوّل أهل البديع أُنسه، وساق إلى طيبة بأحمال المدائح عنسه»[3].

في هذه الفقرة تناص من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي طيبة، والكاتب وظّف هذه المفردة لعلاقتها الوثيقة بالرسولﷺ، فمجرد ذكر اسمها يقفز إلى الذهن ذكر الرسول ﷺ، ولما كانت البردة في مدحه صلوات الله عليه وسلامه، جعل تخميسها كذلك هديّة إلى مدينته لينتظرها هنالك.

---

(١) المصدر السابق، ٤/٣٨٧.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٦١٨.

(٣) المصدر نفسه، ٣/٣٧٦.

الطباق:

هو الجمع بين ضدين مختلفين كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والسواد والبياض[1]، ويرى القزويني أن الطباق هو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون ذلك إما لفظين من نوع واحد: اسمين أو فعلين[2].

وقد كثر في نثر الصفدي الطباق، فمن الأمثلة على ذلك ما كتب به بشارة بوفاء النيل:

«وسرّه بكل خبر يتفرَّق به محلّ المَحْل ويتفرَّق، ويعمّه بكل وارد يقص عليه حديثاً، جعل البرَّ بحراً وملأ البحر برّاً»[3] فطابق الكاتب بين لفظتي البرّ البحر، ومن الرسالة ذاتها «وتفضّ سلاماً يتردد إليه تردد أمواج البحر في انحداره وصعوده»[4] فطابق بين انحداره وصعوده، ومن الرسالة ذاتها «فبينا هو في أقصى الجنوب إذا هو في أقصى الشمال»[5] فطابق بين الجنوب والشمال.

والطباق في الكلام يكسبه الوضوح من خلال ذكر المعنى وضده، ومن رسالة في الشوق إلى أحد أصدقائه: «يقبّل الأرض وينهي ورود المثال الكريم الذي فضح كمالُه القمر، وسلب بسحره الألباب وقمر، وأحيا رسم البلاغة فساد بما شاد وعمر، وهمى غمام فضله وسقى رياض الفصاحة وهمر، وقسم نظمه ونثره فهذا للندامى غناء وهذا للمحدثين سمر، وخالف العادة لأنه جاء بستاناً في ورقة، إلا أن جميعه زهر وثمر، وأمَرَ ونَهَى في سلطان فضله»[6].

---

(١) انظر: الحلبي، **حسن التوسل**، ص١٩٩.

(٢) القزويني، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، قدّم له وبوّبه وشرحه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، ص٢٨٧.

(٣) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ٤/ ٣٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ٤/ ٣٣٠.

(٦) المصدر نفسه، ٤/ ٤٠٦.

فطابق الكاتب بين الفعلين «سلب أحيا»والاسمين «نظمه نثره»والفعلين «أمر نهى».

وقد جاء الطباق في مختلف أغراض نثره من رسائل إخوانية، وديوانية، ووصفية، ومقامات. فمن الرسائل الإخوانية ما كتبه في شكر على هدية: «وينهي بعد دعاء تفسّحت له بين النجوم المضارب، وولاء أعلامه خفاقة الذوائب بين المشارق والمغارب»[1] فطابق بين المشارق والمغارب، ومن الرسالة ذاتها «لا تنهض بأوصافهما قوائم المسودات والمبيضات» [2] فطابق بين المسوّدات والمبيّضات، ومن الرسالة ذاتها ولا يقرب منهما الفواكه الحلوة لأنها تقول مالنا وللدخول في هذه المحمّضات [3] فطابق بين الحلوة والمحمّضات.

ومن رسالة شكر أخرى على هدية:-

«ونزّه ناظره في تلك الحديقة التي تجدولت بالسطور، وتطوّلت ببياض طرسها وسواد نقشها» [4] فطابق بين سواد وبياض، ومن الرسالة ذاتها «بدعاء يرفعه والملائكة تضعه» [5] فطابق بين ترفعه تضعه. ومن الرسالة ذاتها «وقد غفر المملوك به من ذنوب الدهر ما مضى وما بقي» [6] فطابق بين مضى وبقي. ومن رسالة في حل لغز: «وله خواصٌ عجيبة وصفات بعيدة، إلا عن ذهنك الصافي فإنها قريبة» [7]. فطابق بين بعيدة وقريبة، ومن الرسالة ذاتها «وشر الطيور يأوي إلى الخراب وخيرها يأوي إلى القصور(*)» [8] فطابق بين لفظتي الخير والشّرّ، وكذلك الخراب القصور.

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٤٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٦.

(٧) المصدر نفسه، ٥/ ٣١٨.

(*) من بيت المتنبي:

خير الطيور على القصور وشرُّها يأوي الخرابَ ويسكن الناووسا

المتنبي الديوان، ٢/ ٢٠٢.

(٨) المصدر نفسه، ٥/ ٣١٨.

وقد جاء الطباق في رسائل الوصف، ومن ذلك ما جاء في وصف الأمطار والثلوج «فشابت من الفرق إلى القدم، وغمرت سيوله الأباطح والرُّبا»[1] فطابق بين لفظتي الفرق والقدم، والأباطح والربا، ومن الرسالة ذاتها: «واتساع هذه الأهوال وضيق ذات اليد مضاف إلى ضيق النفوس»[2] فطابق بين اتساع وضيق، ومن الرسالة ذاتها «وبصاق هذا الثلج في وجه الضاحك منا والعبوس»[3] فطابق بين الضاحك والعبوس.

ومن الطباق في مقاماته ما جاء في مقامه رشف الرحيق «وكم من طائر لرفع نسره مخفوض»[4] فطابق بين رفع ومخفوض ومنها «وبنفسج الظلام يذوي ونيلوفر النار على الماء ويقوى»[5] فطابق بين الماء والنار، وكذلك بين يذوي ويقوى، ومنها «فما منهم إلا ربٌ نعمة سلبت أصبح بعد الجديد في خلق»[6] فطابق بين جديد وخلق، ومنها «ودخل لظاها فتلقته ببردها وسلامها»[7] فطابق بين لظاها وبردها، ومنها «فلم ير أسهل من خمودها، ولا أسرع من إبطال حركتها وجمودها»[8] فطابق بين حركتها وجمودها.

ومن مقامة لوعة الشاكي ودمعة الباكي:-

«وأسكن القلب ولا يطمئن، وأعلله وهو لا يتعلل ولا يستكن»[9] فطابق طباق سلب بين أسكن ولا يستكن، وكذلك أعلله ولا يتعلل، ومنها «وقطع مسافة

---

(١) المصدر السابق، ٢/٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ٢/٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢/٢٢٢.

(٤) الدروبي، **رشق الرحيق**، ص١٠٠.

(٥) المصدر نفسه، ١٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٧) المصدر نفسه، ص١١٠.

(٨) المصدر السابق، ص١١١.

(٩) الصفدي، **لوعة الشاكي**، ص٤٣.

الليالي والأيام»[1] فطابق بين الليالي والأيام، ومنها «إلى أن كاد الظلام يشفُّ له الحالك، ويبتسم ثغر صحبه الضاحك»[2] فطابق بين الحالك والضاحك، ومنها «وأقبل الفجر مؤيّداً منصوراً، وولى الليلَ مهزوماً مكسوراً» [3] فطابق بين أقبل وولى، وبين الفجر والليل وكذلك بين منصور ومهزوم.

ومن الطباق في رسائله الديوانية، ما جاء في توقيع بنظر دار الطراز:

«وفُوِّض إليه النظر في جمال المأمور والأمير وزينة الكبير ولا حظ فيها للصغير»[4] فطابق بين الكبير والصغير، ومن التوقيع ذاته: «ويتفاءل منها بسعادة الآخرة فإنه بها في الدنيا في جنة وحرير» [5] فطابق بين الآخرة والدنيا.

ومن تقليد له: «فإن ممالكنا الشريفة منها ما هو عالي المكانة داني المكان... كم فيه من كثيب رمل أوعس، وحديقة إذا بكى الغمام. عليها تبسم ثغر زهرها الألعس،... فقد اكتنفه البر والبحر»[6]، فطابق بين بكى وتبسم، وبين البر والبحر، ومن التقليد ذاته «لأنَّ العدل يُعمِّر البلاد والجور يدمِّر العباد» [7] فطابق بين يعمِّر ويدمِّر، ومنه «ولا نعتقد إلا أنّه الأصل وبقية السياسات فرع»[8] فطابق بين أصل وفرع، ومنه «وعنايتنا بهم تامة متمنحهم الخير وللشرِّ تدفع... ويتَّبَع أصول أمورهم وفرعها... وكبيرهم وصغيرهم»[9] فطابق بين الخير والشر، وبين أصل وفرع، وبين كبيرهم وصغيرهم، ومنه «فإنَّ من لازمها سعد دنيا

---

(١) المصدر السابق، ص٥١.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٢.
(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٢٥٢.
(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٢٥٢.
(٦) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٤
(٧) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٥
(٨) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٥.
(٩) المصدر نفسه، ١/ ٦٦٥.

وأخرى»[1] فطابق بين دنيا وأخرى.

ومما يلاحظ على الطباق في نثر الصفدي غلبة طباق الإيجاب مقارنة مع طباق السَّلب، وهو كذلك يراعي في طباقه الإيجابي مطابقة الأسماء مع بعضها، والأفعال كذلك، فلا يطابق بين فعل واسم، أو العكس، وهو على كثرة ماله من طباق، إلا أنّه مع ذلك لا يُشعر القارئ بتكلّف هذا الطباق.

---

(١) المصدر السابق، ١/٦٦٦.

السجع:

يرى ابن الأثير أن السجع تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحدٍ، وقد امتدحه وعاب من يذمّه ، وعدَّ ذلك عجزاً عن الإتيان به [1]، وقد وافق القزويني ابن الأثير عندما قال أن السجع تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرفٍ واحد [2].

ويشترط ابن الأثير في السجع أنْ تكون ألفاظه حلوة حارّة طنّانة رنّانة، لا غثّة ولا باردة [3].

وتحدث القلقشندي عن السجع وأفاض فقال: «إنه مشتق من الساجع، وهو المستقيم لاستقامته في الكلام ، واستواء أوزانه، وقيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حدٍّ واحدٍ» [4].

ولم يخالف القلقشندي من سبقوه في هذه الصناعة أمثال ابن الأثير، والحلبي، والقزويني، وغيرهم فقال: «هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن» [5] على أنَّ السجع ليس وليد عصر الصفدي، بل كان معروفاً في العصر الجاهلي، وسجع الكهّان كان شائعاً جداً، إلا أن السجع قد أخذ مكانه في القرن الرابع الهجري، وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري(٣٩٥هـ) : «ولا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الأزدواج [6].

ولا أكون مبالغاً إذا قلت بأنَّ نثر الصفدي جلّه مسجوعٌ ، إلا أنَّ الاختلاف في طول السجعات وقصرها.

---

(١) انظر: ابن الأثير، أبو ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق، أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١/ ٣٠٨.

(٢) القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص٣٢٥.

(٣) ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/ ٣١٣.

(٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٢/ ٣٠٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢/ ٣٠٢.

(٦) العسكري، أبو هلال الحسين بن عبدالله بن سهل (٣٩٥هـ)، **كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٨٥.

ومن ذلك ما جاء في رسالة تعزية:

«ذهب والله من كان جمال الوجود، وإمام الائمة وكعبة الجود، ومن كان بقاؤه بين ظهراني الناس رحمة، ومن بينه في العلوم وبين علو النجوم زحمة»[1] فكانت السجعة الأولى ست مفردات بينما الثانية أربع مفردات، ومن الرسالة ذاتها: «يامولانا هذا ركن الإسلام قد انهدم، وهذا بحر الإيمان قد ارتدم، فمصابه قد عمَّ وما خصَّ، وتحيّف جناح الصبر وما حصَّ»[2] فهنا تساوت أطوال السجعات، حيث كانت الأولى خمس مفردات، والثانية خمس مفردات، والثالثة خمس مفردات، إلا أنّه في أغلب الأحيان لا يستقيم له ذلك، ومن ذلك ما جاء في الرسالة ذاتها:-

«فالله يعين على ما أبلى، ويمسك رمق القلوب فإنها عُريت جبّة الصبر وماتطيق من الأحزان نبلا» فالناظر هنا يلحظ التفاوت الكبير في طول السجعتين؛ حيث الأولى أربع مفردات، بينما الثانية عشر مفردات، ويعدُّ ابن الأثير ذلك عيباً إذا كان يخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً[3].

ويميل الصفدي في سجعه إلى التنويع في حروف فواصله، فيجعل كل سجعتين على حرفٍ واحد، ومن ذلك ما جاء في مقامة لوعة الشاكي:-

«موجب هذه المقدمة الواعظة، والألفاظ التي هي بالتحذير لا فظة، أني خرجت في بعض الأيام متفرِّجاً وسارحاً، وجائلاً بطرفي في الرياض وسائحاً ،وصحبني صديقٌ لي في المحبة صادق، ورفيق لي فيما أروم موافق»[4] ففي السجعتين الأوليين كانتا على حرف الظاء واعظة لا فظة، وفي السجعتين الأُخريين استخدم حرف القاف صادق موافق، وزيادة على ذلك فقد ظهر التوازي في هذه السجعات «وهو أن تراعي في

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/٤٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٤٥٤.

(٣) ابن الأثير ، **المثل السائر**، ١/ ٣٧٠.

(٤) الصفدي، **لوعة الشاكي**، ص١٧.

الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتقاف الحرف الأخير»[1] ويكثر هذا النوع من السجع في نثر الصفدي.

وإلى جانب حرصه على تنوع حروف فواصله إلا أنه في خطب الرسائل الديوانية يلزم حرفاً واحداً في كل تحميدة من الخطبة، ومن ذلك ما جاء في خطبة توقع بنظر الجوالي:-

« الحمد لله جمل أيامنا الشريفة بضيائها، وكمل دولتنا القاهرة بياسمين أوليائها وجعل نعمنا الغامرة تكاثر الغمام بآلائها، وضوّا مما لكنا العامرة بمن يجعل النظر فيما يتولاه من نواحي أرجائها»[2] فالتزم الهمزة في كلٍّ فواصله في التحميدة السابقة، فكانت: ضيائها، أوليائها، آلائها، أرجائها وهو كذلك قد التزم السجع المتوازي فيها، حيث المفردات على وزن واحد.

والصفدي يميل إلى استخدام السجع القصير، إلا أنَّ ذلك لا يستقيم له دائماً، ومن سجعاته القصار قوله في توقيع بالخطابة:-

« وتقوى الله تعالى جُنة واقية، وجَنة راقية، وسنة باقية، فليلبس حُلّة شعارها، ويعلي منارة منارها»[3].

ويرى ابن الأثير أنَّ هذا النوع من السجع أوعرها وأبعدها متناولاً، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً، ويرى أنّه كلما قلت ألفاظه كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع[4].

ويشترط ابن الأثير في السجع أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ[5]، ومن الملاحظ على سجع الصفدي أنه يخلو من التكلّف، واتباع المعنى اللفظ على كثرته في نثره، ولا أكون مبالغاً إذا ما قلت أنّ سجعه جلّه من السجع المتوازي، الذي يراعى فيه الوزن.

---

(١) الحلبي، **حسن التوسل**، ص٢٠٩.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/٦١٦.

(٣) المصدر نفسه، ٥/٦٢٨.

(٤) ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/٣٧٢.

(٥) المصدر نفسه، ١/٣١٦.

الموازنة:

أما السجع المتوازن أو الموازنة ، فقد عدّه ابن الأثير أخا السجع، وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن[1]، ويرى الحلبي أن المتوازن «هو أن تراعي في الكلمتين الآخرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منها»[2].

وقد سماه الحلبي بالمتوازن بينما يسميه ابن الأثير الموازنة وسمّاه القزويني سجع الموازنة «وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية»[3].

وهذا النوع من السجع ما عناه القلقشندي بالازدواج، أي أن يختلف حرف الروي في آخر الفقرتين، وهو الذي يعبرون عنه بالازدواج، والرماني يسميه السجع العاطل وهو ضربان: أن يراعى الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعدالها وزناً، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلاها، أو أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين فقط، ويسمى التوازن أيضاً[4].

والناظر في نثر الصفدي يجد الكثير من هذه الحلية، إلا أنها قليلةٌ مقارنة بسجعه بالمتوازي ، ومن ذلك ما جاء في مقامة رشف الرحيق «فانكشف لما رأت من وجهه سراجاً وهّاجاً، وطغيت لما أن رأت جوده عذباً فراتاً»[5] فوازن الكاتب بين وهّاجاً وفراتاً.

ومن مقامة لوعة الشاكي:

«وكان عاذلاً، فصار عاذراً، وكان حاذقاً ، فصار حائراً، وكان ضاحكاً ، فصار

---

(١) انظر المصدر السابق، ١/ ٤١٤.

(٢) الحلبي، **حسن التوسل**، ٢٠٩-٢١٠.

(٣) القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص٣٢٨.

(٤) انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٢/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٥) الدروبي، **رشف الرحيق**، ص١٠٤.

نائحاً، وكان كاتماً ، فصار بائحاً»[1].

فوازن الكاتب بين «عاذلاً عاذراً» ، «حاذقاً حائراً»، «ضاحكاً نائحاً»، «كاتماً بائحاً» وعلاوة على هذه الموازنة فقد وازن بين كان وصار ، فسرت الموازنة بين مفردات القرينتين ولم تقتصر على المفردتين الأخيرتين، ولذا تعدّ الموازنة هنا من الضرب الأول الذي أشار إليه القلقشندي ، والذي عدّه أحسنها، وأعلاها[2].

ومن المقامة ذاتها:

«وكان صحيحاً ، فصار عليلاً، وكان عزيزاً فصار ذليلاً»[3] فوازن بين «صحيحاً عليلاً»، «عزيزاً ذليلاً».

ومن مرسومٍ بنيابة بعلبك:

«وليردع المفسد بنكاله، ويقمع المعتدي بجلاده»[4]، فوازن بين «نكاله بجلاده».

ومن توقيع بحكم البندق:

«يرتاضون به عند الملل لاسترواح نفوسهم ، ويجنون ثمرات المنى في التنزه من غروس عروشهم»[5] فوازن بين «نفوس عروش».

---

(١) الصفدي، **لوعة الشاكي**، ص١٥.

(٢) انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٢/٣٠٦.

(٣) الصفدي، **لوعة الشاكي**، ص١٥.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٤٦٥.

(٥) المصدر السابق، ١/١٩٨.

الجناس :

يرى ابن الأثير أن الجناس سبعة أقسام، واحد فقط يدل على حقيقة التجنيس، والباقي مشبهةٌ، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظه في تركيبها، ووزنها، وحدّ التجنيس عنده اتفاق اللفظ واختلاف المعنى [1].

وقد عدّ ابن الأثير الأقسام الستة الأخرى مشابهة للجناس وهي:

أن تكون الحروف متساوية في تركيبها، مختلفة في وزنها، ومثّل لذلك بالحديث الشريف: « اللهم كما حسنّت خَلْقي حسِّن خُلُقي» [2] أما القسم الثاني: وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن، مختلفة في التركيب بحرفٍ واحد، ومثاله قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة لربها ناظرة﴾(*) [3]، والقسم الثالث: أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، ومثاله قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذٍ المساق﴾(**) [4].

والقسم الرابع ويسمى المعكوس، وهو نوعان كما يرى ابن الأثير أحدهما عكْس الألفاظ كقول بعضهم «عادات السادات وسادات العادات» [5] وثانيهماعكس الحروف، ومثاله قول القائل

كيف السرور بإقبال وآخره إذا تأمّلته مقلوب «إقبال» [6]

والقسم الخامس المجنَّب، وذلك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين، إحداهما كالتَّبع للأخرى والجنيبة لها، ومثاله قول القائل:

---

(١) انظر: ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/ ٣٨٠، ٣٨٥.
(٢) المصدر نفسه، ١/ ٣٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ١/ ٣٨٦-٣٨٧.
(*) سورة القيامة، الآية ٢٢، ٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ١/ ٣٨٨.
(**) سورة القيامة، الآية ٢٩، ٣٠.
(٥) المصدر نفسه، ١/ ٣٩٢.
(٦) المصدر نفسه، ١/ ٣٩٦.

أبا العباس لا تحسب بأنّي لشيءٍ من حلى الأشعار عاري

فلي طبعٌ كسلسال معينٍ زلال من ذرا الأحجار جاري

وهو في رأي ابن الأثير أقرب إلى لزوم ما لا يلزم منه للجناس [1]. والقسم السادس: ما يساوي وزنه تركيبه، غير أن حروفه تتقدّم وتتأخّر ، كقول أبي تمام:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشّك والريب [2]

والصفدي ألّف في هذا اللون من البديع كتابه جنان الجناس، وقال في مقدمته مبيّناً أهمية الجناس: «فلما كان البديع في الزمن المتأخّر أحسن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة، وأكثر رواية واسعة ولا أقول رياءً وسمعة، به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعةٍ بعد خلعة، وإذا كان الشعر برآ، فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حلّة مرموقة، فهو طراز كلّ رقعة، وخصوصاً نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته، وبيان شرعته، وديباجة صنائعه في صنعته وآية سجدته. . . » [3].

وقد حشد الصفدي أقوال الأدباء السابقين له في حدّ الجناس، وفنّدها رأياً رأياً بالشرح والنقد، وبعد ذلك وضع حداً للجناس رآه أجمع وأشمل مما وضعه السابقون «وهو الإتيان بمتماثلين في الحرف، أو في بعضها، أو في الصورة، أو زيادة في احداهما، أو بمتخالفين في الترتيب أو الحركات، أو بمماثل يرادف معناه مماثلاً آخر لفظاً» [4].

وقد فصّل القول في هذه الأقسام، إلا أنّه مما يؤخذ عليه عَدَم التمثيل عليها من نثره واكتفى بنظمه.

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٣٩٧.

(٣) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ)، **جنان الجناس (في علم البديع)**، تحقيق سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٤-١٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٢.

ومما نسوقه هنا من الجناس مما وقع في رسائله الفنية ما جاء في تقريظ له: «ونقص أبو تمام فليس بحبيب، والمعاني التي هي أوقع في النفوس من وصل حبيب، ونزّهته اللذة عن الرقيب القريب»[1]

فجانس الكاتب بين «حبيب وحبيب» حيث الأولى اسم أبي تمام والثانية العاشق، وهو جناس تام، وجانس كذلك بين «رقيب قريب» جناس ناقص.

وله في توقيع:

«وكم حلب في حلب وغيرها رزقاً»[2] فجانس بين «حَلَب وحَلَب» حيث أولهما تعني حصّل، وثانيهما تعني المدينة المعروفة.

ومن توقيع له: «لأنَّ الكاتب الذي راحت براحته الطروس المدبجة»[3] فجانس بين «راحت وبراحته».

ومن التوقيع ذاته: «والأصيل الذي تُردّد الرئاسة خلال خلاله»[4] فجانس بين «خلال وخلاله».

ومن رسالة تهنئة:

«يقبل الأرض وينهي أنه جلس بهذه البشرى على سرر السرور، والتحف منها بحبر الحبور، وملأ كفّه بالدّرر من هذه الأفراح، وملأ طرفه بالبدور، ونطقته هذه المسرات بالمحامد، فارتجل وارتجز، وأمكنته الفرصة من التهاني، فانتهب وانتهز، وقرن الهناء بالدعاء، فابتهج وابتهل»[5].

فجانس بين «سرر السرور»، «حبر الحبور»، «الدرر البدور» «ارتجل ارتجز»، «انتهب

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٥١٠.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٥٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٥٧٩-٥٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٣٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ٣/ ٦١٧.

انتهز»، «ابتهج ابتهل»، وهذا الجناس لا يخلو من تكلف حتى وصل إلى هذا القدر، إلا أنَّ محمود سليم يرى أن الجناس لامع الصفحة بين الأدب العربي شعره ونثره، حتى أضحى إحدى دعائم الأسلوب في عصر المماليك، وهذا يعني أن الصفدي ومعاصريه كان لزاماً عليهم الإكثار منه[1].

وتسير معظم رسائله على هذه الشاكلة، ولا غرو في ذلك فهو حامل لواء الجناس في عصره، والدليل على ذلك تاليفه في ذلك كتاباً.

ومن رسالة يتشوق فيها إلى ابن الوردي:-

«وأن يرزقه اجتلاء ذلك الروض، الذي نجني بسمعه أزهاره، التي تسلب النظارة النَّضارة»[2] فجانس بين «النظارة النَّضارة».

ومن رسالة في وصف الأمطار والثلوج: «جليد يذوب به قلب الجليد»[3] فجانس بين «جليد وجليد» حيث أولهما الماء الجامد، وثانيهما الشخص الشجاع.

وفي الرسالة ذاتها: «فالأطفال ضباب الضباب»[4] فجانس بين «ضِباب والضَّباب».

ومن رسالة في تعزية:

«يجمع لديه بين ثوابه وثباته»[5] فجانس بين ثوابه ثباته».

ومن مرسوم بنيابة بعلبك:-

«ويحذر الميل على الضعيف الذي لا جنب له، ويترك الصاحب الجنب»[6] فجانس

---

(١) سليم ، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك**، ق٢، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٦٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٠.

(٤) المصد نفسه، ١/ ٤٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ١/ ٤٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ١/ ٤٦٥.

بين «جنب والجنب» حيث تشير أولاهما إلى السند والمعين، وثانيهما الصديق الحميم.

ولا تكاد جملة أو فقرة في رسائله الفنية تخلو من الجناس، إلا أن جناسه في معظمه لم يظهر فيه التكلّف الذي تحدّث عنه شوقي ضيف[1]، ومحمد سلاّم[2]، ولعلّ رأيهم عائد إلى رأي ابن نباتة (٧٦٨هـ): «وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمّى بجناس الجناس، وقد اشتمل على كثير من هذا النوع، قرأه جنان الخناس»[3].

ونرد على من توهم بأن ابن نباتة عاب على الصفدي ما جاء في كتاب جنان الجناس، وقاس ذلك على نثره إجمالاً بأنّ ابن نباتة عاب على الصفدي كثرة الألوان الجناسية التي حشدها في كتابه، ولم يعب عليه ما طبّقه في نثره، علماً بأن الصفدي لم يضمّن كتابه ذاك بشيءٍ يذكر من نثره الفنّي.

---

(١) انظر : ضيف، شوقي، **عصر الدول والإمارات**، الشام، ص٣٠٦.

(٢) انظر: زغلول، محمد سلام، **الأدب في العصر المملوكي**، ج٢، ص٤٧٩.

(٣) الحموي، تقي الدين أبو بكر علي (٨٣٧هـ/١٤٣٣م)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، شرح عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال-بيروت، ط٢، ١٩٩١، ٥٦/١.

اللغة والأسلوب:

يحتاج الكاتب- كما يرى ابن الأثير في تأليفه- إلى ثلاثة أشياء: اللفظة المفردة، فعلى الكاتب تخيّرها، ثم نظم كل مفردة مع أختها لكي لا يكون كلامه نافراً قلقاً، وبعد ذلك مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام[1].

والصفدي الذي تعاني صنعة الرسم وتنسيق الألوان لا أظنّه قد تغافل عن هذه الأمور، فهو يختار ألفاظه ويوائم بينها تماماً كما ينسّق رسومه.

والناظر في نثر الصفدي يجد سهولة في استخدام ألفاظه، فهو يتجنّب استخدام الألفاظ الوعرة، وللتدليل على سهولة ألفاظه ووضوحها ما جاء في إحدى رسائله في الشوق:-

«يقبل الأرض وينهي بعد سلام اتسم برقّة، وارتسم برقّة، وشوق منع طرفه القريع لذّة الهجوع، ووجدٍ يشب له جمر الفؤاد كما أضاء له البرق اللموع»[2].

فهذه الفقرة من الرسالة تتسم بالوضوح والبعد عن الغرابة، فلا يحس القارئ بشيء من الغموض والإبهام، بل جاءت ألفاظها سهلة واضحةً.

وكما تظهر السهولة في ألفاظ رسائله الإخوانية، تظهر كذلك في رسائله الوصفية، ومن ذلك ما جاء في وصف الأمطار والثلوج:

«كيف يهنأ العيش وبروق الجو سيوف تخترط، ونَفَسُ هذه الرعود يخرج بعدما حُبِس في حشا السحاب وانضغط، وإلحاح سائل هذا المطر، فلو كان قطره درأ لما مدَّ الفقير إليه يداً ولا التقط»[3].

فالناظر في ألفاظ هذه الفقرة يجدها واضحة بعيدة عن الغرابة والتوعّر.

ومن الرسائل الوصفية كذلك التي اتسمت ألفاظها بالسهولة والوضوح والبعد عن

---

(١) انظر، ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/ ٢٤٥.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/ ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢١.

التعقيد، ما جاء في وصف فتنة:

«يا مولانا هذه مصائب عمّت وطمّت، وصرّحت بالشَّرّ وما عمّت، وقيدت إليها الأهوال وزُمّت، ودعت الجفلى إلى مآدبها، وأصمَّ المسامع نعي نوادبها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قول مَنْ ضاقت به حيلته، واتسعت عليه بالهموم ليلته»[1].

ولم يقصر الصفدي الوضوح والبعد عن الغرابة والغموض على رسائله الإخوانية والوصفية، بل تعدى ذلك إلى رسائله الرسمية، ومن ذلك ما جاء في توقيع بالحسبة:-

«فأجرِ فيها على عادتك الحسنى، وأولِ الناس فيها أمناً ومنّاً، واستعمل اليأس في موضعه الذي يليق به وضعاً، والرفق ولكن عزَّ مكانه، فإن الغدر والخيانة يكونان في أكثر الناس طبعاً، وأمر نوابك- أعزك الله- أن يحذوا في العفة والأمانة حذوك»[2].

فالفاظ هذه الفقرة واضحة بعيدة عن التعقيد والتكلّف، ويظهر الوضوح في ألفاظ مقاماته، ومن ذلك ما جاء في مقامة رشف الرحيق:-

«وكان أهل دمشق دعوا طارق النيل والفرات ليقرى، وخافوا ضلاله، فرفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمرا، إلى أن أتاها البحر لا زال نصره عجاجاً، ولا برحت سيوفه تكاثر البحار أمواجاً، وكاثرها بهمم أمرائه، فأحكم إخمادها، وتلقى بصدره من خطب الزمان ما دهى»[3].

وإلى جانب اهتمامه بوضوح ألفاظه يميل إلى استخدام الألفاظ الجزلة، ويرى ابن الأثير أن اللفظ الجزل هو المتين على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع، وليس الوحشي المتوعّر[4]، وأكثر ما يناسب هذا اللون من الألفاظ الرسائل التي تحمل معنى

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ٤/ ٢٦٠.

(٣) الدروبي، **رشف الرحيق**، ص١٠٤.

(٤) انظر: ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/ ٢٧٥.

الحروب والتهديد، ومن ذلك ما جاء في منشور بإمرة أحد وأربعين رمحاً:

«ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ترغم معاطس الكفر والضلال، ونعلي بها كلمة الإيمان بصدور البيض البُتر وكعوب السُّمر الطِّوال، ونُطلع بها في ليل العجاج المظلم أسنة الذوابل تتقد كالذبال، وننال بإخلاصها النصر إذا تبّت يد الكافر يوم الفتح في القتال»[1].

ففي هذه الفقرة كثير من الألفاظ التي تمتاز بالجزالة وتناسب جو الحرب والتهديد من مثل: معاطس الفكر والضلال، ليل العجاج، أسنة الذوابل، تبت يد الكافر... وإلى جانب استخدامه للألفاظ الجزلة، يستخدم كذلك الألفاظ الرقيقة، وهي كما يصفها ابن الأثير بأنها اللطيفة، رقيقة الحاشية، ناعمة الملمس، وليست الركيكة السفيفة[2].

وهذا اللون من الألفاظ يناسب رسائل الشوق واستجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك[3].

ومن ذلك ما جاء في رسالة شوق بعثها الصفدي إلى ابن سيد الناس:

«وأما المثال العالي- أعلاه الله تعالى- وجعل القلوب في عليٍّ قدره تتوالى، فأعود إلى وصفه نثراً واستعير من كلماته في تقريظة درّاً، فأقول إنه اشتمل على المحاسن وغدا أنموذج الجنة التي خمرها مغتال وماؤها غير آسن، وتقطر البلاغة من كلمه، وتشفّ الفصاحة من وراء ما سطّر بقلمه، وتغني رياضه الناضرة عن أراك الحمى، وعن سلمه، ويهز الواقف على معانيه بالطرب من قرنه إلى قدمه، يتحيّر الناظر فيه لتردّده بين روضٍ وأُفق، ويتخيّر الماهر من لفظه تاجاً لفرقٍ أو قلادةً لعنق»[4].

ففي هذه الفقرة من الرسالة تظهر العبارات الرقيقة، التي توحي بالشوق، من مثل

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ٤/ ٣٨٥.

(٢) انظر: ابن الأثير، **المثل السائر**، ١/ ٢٧٥.

(٣) انظر المصدر نفسه، ١/ ٢٧٥.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٥/ ٢٢٦.

رياضه الناضرة، أراك الحمى، يهز الواقف على معانيه بالطرب، بين روضٍ وأُفق. . .

وعلى الرغم من حرصه على استخدام الألفاظ الواضحة، التي تناسب أغراض رسائله، إلا أن السجع يضطره أحياناً إلى العدول عن الألفاظ البسيطة، واستخدام الغريب من الألفاظ، ومن ذلك ما جاء في وصف المسجد الأموي:

«فإنه يوقف النائم بحسن رخامه القائم، وتجلو بهيم الدجى حصّة الفجر من حصّه(*)، وتروي كل زخرفته الحسن بفصّه(**)، كم دار به دولاب كانت قناديله تدور مثل الفرقد، وكم طلع في سماء صحنه من ثريا، وكم تمنى القمر لو كان بين نجومه فما اتفق له ذلك ولا تهيأ، وكم جليت عروسه في عقود وقود، وكم تمتعت الأبصار فيه بوجوه تخجل البدر في ليالي السعود، وكم فيه عمود قام على قاعدة، وكم به من منجور كغضون أوجه العجائز وأزراره ناهدة. . .»[1].

ولا يخفي على الناظر ما في بعض المفردات من الغرابة، أتى بها الكاتب ليجانس أو يسجع، إلا أنها لم تصل إلى حالة الركاكة التي ادّعاها محمد سلام، عندما أشار إلى أن الصفدي يؤدي به تكلّفه للجناس إلى استخدام كلمات غير مستخدمة، أو ركيكة لمجرد توافق المفردات في الجناس[2].

ولم يكن السجع أو الجناس وحدهما يتحكمان في جلب الألفاظ الغريبة، بل ربما أدى إلى ذلك إظهار البراعة، ومن ذلك «فضربوا بسياط كشطت غلظ الغلط من جِلْدهم، وأوهنت قوى شجاعتهم وجَلَدهم، كم فيهم من أسود اللمة فتق جلده الشيب، وخَطَ(***) وخطه(****) على جنبه ما كان مخبوءً له في الغيب»[3].

(*) حُصّه: بمعنى الورس، ويقال هو الزعفران (لسان العرب: حصص).

(**) فصّه: أصله وحقيقته وكنهه (لسان العرب: فصص).

(١) الدروبي، **رشف الرحيق**، ٩٩-١٠٠.

(٢) انظر: زغلول، **الأدب في العصر المملوكي**، ٤٧٩/٢.

(***) الوخَط: فشوّ الشيب في الرأس (لسان العرب: وخظ).

(****) وخطه: تناوله من بعيد (لسان العرب، :وخط).

(٣) الدروبي، **رشف الرحيق**، ص١١٣.

يلحظ هنا كثرة الألفاظ الغريبة على الرغم من قصر النّص، ولعل ذلك عائد إلى إظهار البراعة والمقدرة على استخدام الألفاظ الغريبة قليلة الاستخدام، بل ربما جاءت الألفاظ غريبةً لتشاكل الموقف الذي تصفه، وهو تعذيب مدبري الحريق الذي أحدثوه في المسجد الأموي في دمشق سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م).

وعلى الجملة تميّز أسلوب الصفدي بصورة عامة- في نثره- بالاهتمام بالبديع، فلا أعدو الحقيقة إذا ما قلت بأن أسلوبه عماده الأصيل الفنون البديعية.

الصورة والخيال

تشير المصادر إلى أن الصفدي تعانى مهارة الرسم ومهر فيها، والرسم يحتاج إلى مهارة عالية، وذوقٍ رفيع فيَ تنسيق الألوان والمساحات، وهذا الأمر انعكس على نتاجه الأدبي، والذي يهمنا في هذه الدراسة اللون النثري من أدبه، فقد اهتم أيما اهتمام بفنّه النثري، فقد حرص كما مرَّ على الأسلوب البديعي الذي يعتمد الجناس والسجع والطباق وغيرها من فنون بديعيّة، وإلى جانب ذلك اهتم بالصورة الأدبية في نثره فجاءت رسائله بألوان شتى من هذه الصور، ومن ذلك ما جاء في وصف الأمطار والثلوج:-

«وإلى متى قطن هذه الثلوج يطرح على جباب الجبال؟ وإلى متى تغاض دلاص الأمطار، ويرشقها قوس قزح بالنبال؟ وإلى متى تشقق السحاب ومالها من الحلل والحبر؟ وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجوّ وفي أطرافها على الغدران إبر؟ وإلى متى نثار هذه الفضة وما يرى من النجوم دينار؟»[1].

فهذه الفقرة تزخر بالصور الأدبية التي تبرز فيها بوضوح عناصر اللون والحركة والصوت، وبعض الصور لم تكن تقليدية، بل فيها من الجدة والابتكار الكثير، من مثل

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/٤٢٩-٤٣٠.

صورة قوس قزح وهو يرشق الأمطار بالنبال، وصورة الغمام الذي يكحّله البرق بالنار، وصورة قطرات الماء المتساقطة على الغدران بالخيط والإبرة.

ويعتمد الصفدي في تركيب صورة حاسّة البصرأكثر من غيرها، وهذا واضح في الفقرة السابقة، ولعل ذلك عائد إلى ذوقه الفني في رسم لوحاته، ومن الصور التي يعتمد فيها حاسة البصر، الصور اللونيّة، ومن أمثلتها ما جاء في رسالة شكر على هدية: -

«ومن أترج أصفر، وكباد أحمر، هذا لونه لون الوجل، وهذا له حمرة الخد الخجل، هذا تحرّج متضرّج، وهذاك تهيج وما تدبّج، لا تنهض بأوصافهما قوائم المسوّدات والمبيّضات» (١).

فهذه السطور حافلة بالألوان التي توحي باهتمامه بنعصر اللون، ومن الرسالة ذاتها: -

«رؤوسه كرؤوس العدا المحزوزة، غلّفتها الدماء والهضاب، وأصابعه كأصابع العذارى إذا انغمست في الخضاب، يتفرع العنبر عن كافوره، وينصدع الديجور منه بصبح بدا في سفوره» (٢).

ومن صورة البصرية ما يعتمد الحركة، ومن ذلك ما جاء في وصف الأمطار والثلوج: -

«وقد تزاحمت الغياهب على المواقيت بالمناكب، وجُهلت المدد، فيا وحشتا لحاجب الشمس ومحيّا القمر، وعيون الكواكب» (٣).

فلا يخفى ما في الفعل «تزاحم» من حركة وجلبة، ويبرز جمال الصورة جليّاً عند تشبيه الغياهب بالمصلين الذين يساوون بين مناكبهم في الصلاة.

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٤٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢٢.

ومن إجازة لأحد تلاميذه:-

«فقد عرض عليَّ... جميع المعلقات السبع... في مجلس واحدٍ عرضاً عن ظهر قلب، وهـذا يتعـدى إلى اللبِّ بهمزة السلب، كالسيل إذا تحدّر على الحقيقة من علي[1]» .

فتظهر الصورة الحركية في عبارة «كالسيل إذا تحدر على الحقيقة من علي» وهو مأخوذ من قول إمرئ القيس:

مكرّ مفرّ مقبل مـدبر معاً . كجلمودِ صخرٍ حطّه السيل من علِ[2].

وفي العبارة كذلك تورية حيث المعنى القريب لعلي المكان المرتفع، والمعنى البعيد وهو المراد اسم تلميذه.

ويكثر في نثر الصفدي الصور التي مصدرها القرآن الكريم، فمن ذلك ما جاء في رسالة اعتذار:-

«وبالجملة فقد مرَّ ذكر المملوك بالخاطر الكريم، وطاف من حنوّه طائف على المودة التي أصبحت كالصريم[3]»[4].

ومن الصور المستمدة من القرآن الكريم ما جاء في بشارة بوفاء النيل:

«ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة[5]، ويجوز خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة»[6].

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٥٧٦-٥٧٧.

(٢) امرؤ القيس، ابن حجر الكندي، (٥٤٠م)، **الديوان** بشرح محمد بن إبراهيم الحضرمي (٦٠٩هـ)، قدّم له وحققه أنور أبو سويلم وعلي الهروط، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/ ١٩٩١م، ص٧٥.

(٣) سورة القلم، الآية ٢٠ ﴿فأصبحت كالصريم﴾.

(٤) الصفدي، **أعيان العصر**، ٢/ ٩.

(٥) الغاشية، الآية ١٦، ﴿وزرابيُّ مبثوثة﴾.

(٦) الصفدي، **أعيان العصر**، ٣/ ٦٢٥.

ومن الصور المستمدة من الحديث الشريف، ما جاء في رسالة يطلب فيها بعض رسائل بدر الدين بن مكي:-

«وسألت صدقات مولانا التي عمّت وما خصّت، وشرّعت بالمكارم للمتأدبين ونصت، الكتابة فيه بالإجازة للمملوك وإن كان صغير القدر، والإجابة إلى ما سأله لعله أن يكون من أهل بدر»[1].

ومن ذلك ما جاء في رسالة شكر:-

«يقبل الأرض التي تضع الملائكة بها الأجنحة... وعلم أن بهجته من الزمن كانت عارية فاستردها»[2].

ومن الصور المستمدة من التراث الأدبي ما جاء في رسالة تعزية:-

«ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة، وسالت على عدوّكم أباطحهم بقسيّنا المعوجة، وسهامنا المقوّمة»[3].

ومن هذه الصور ما جاء بتوقيع بنقابة الأشراف:-

«.....أو أن الدين معرفة الإمام، فإن هذا وأمثاله تحكم منهم والسلام، إلى غير ذلك من المقالات التي خبطوا خبط العشواء فيها»[4].

ومن الصور المستمدة من الأدوات الحضارية، ما جاء في رسالة شكر على هدية تتضمن بعض الأطعمة:-

«كل رأسٍ منه يعود في طبخه كالمُخّ، وتمشي النفس إليه وهو في الخوان مشي الرُّخ»[5] حيث تظهر رقعة الشطرنج في هذه الصورة.

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٤٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٤٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٣٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٤٢٤.

والناظر في نثر الصفدي يجده حافلاً بالصور الأدبية، التي تنوعت مصادرها، فمنها ما مصدرها القرآن الكريم، ومنها ما مصدره الحديث الشريف، ومنها ما مصدره الشعر ومنها ما مصدرها الأمثال والأدوات الحضارية.

أما بالنسبة لخيال الصفدي الأدبي في نثره فإنه متموّج غير ثابت، حيث إنه في الرسائل الديوانية يضيّق مساحته، ويطلق له العنان في الرسائل الوصفية والمقامات فيقول، في مقامه رشف الرحيق:

«فسألت عن الخبر ممن غبر، فقال: إن الحريق وقع قريباً من الجامع، وانظر إلى سبيج الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار، كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء عذبات ذوائبها

ذوائب لجّت في علوٍّ كأنّما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

وعلتْ في الجوِّ كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ترمي بشرر كالقصر»[1].

فهنا يطلق الكاتب لخياله العنان في رسم صورة للحريق الذي تعرّض له المسجد الأموي في دمشق على أيدي النصارى، فقد تأنّق الكاتب في اختيار الألفاظ الموحية بهذا المشهد المفزع، حتى تصور القارئ المشهد وتراءى أمام ناظريه.

ومن رسالة في وصف الأطار والثلوج:-

«وإلى متى هذا البرق تتلوى بطون حياته، وتتقلب حماليق العيون المحمرّة من أجود غاباته؟ وإلى متى يزمجر غيث هذه الرياح العاصفة؟ وإلى متى يرسل الزمهرير أعواناً تصبح حلاوة الوجوه بها تالفة»[2].

---

(١) الدروبي، **رشف الرحيق**، ص١٠٢.

(٢) الصفدي، **أعيان العصر**، ١/ ٤٣٠.

أساليب فنية أخرى:

أكثر الصفدي في رسائله من استخدام الجمل الدعائية، وهذه الجمل تكون على شكل جمل معترضة تعقب خطب الرسائل الرسمية، وأحياناً تكون في خاتمة الرسالة، وهذه الجمل تحمل الدعاء للمرسل إليه، ومن ذلك ما جاء في رسالة شوق:

«أما المثال العالي- أعلاه الله تعالى وجعل القلوب في قدره تتوالى- فأعود إلى وصفه نثراً، واستعير من كلماته في تقريظه درراً...»[1].

فالجملة المعترضة تحمل معنى الدعاء للمرسل إليه، ومن الرسالة ذاتها يقول:-

«والله يمتع الأنام بحياته التي هي جملة الأماني، ويديم فضائله التي لا توجد إلا في العقد، ولا تؤخذ إلا من الأغاني، بمنّه وكرمه»[2].

ومن الرسائل الرسمية ما جاء بعد خطبة توقيع بنقابة الأشراف:

«ولما كان الجناب العالي الأميري العلائي- أدام الله عزي شرفه، ونفع ببركة سلفه- هو الذي أسر القلم ضميره، وحكم الفكر فيه بصفاء السريرة...»[3].

ومن التوقيع ذاته ما جاء في خاتمته:-

«وهذا فراق بين الوصايا وبينك- والله تعالى يعين ولايتك، ويوضح لأهل الحقّ بالسنّة عنايتك- والخط الكريم أعلاه حجة في العمل بما اقتضاه، إن شاء الله تعالى»[4].

من الأساليب الفنيّة التي تكثر في رسائل الصفدي الإخوانية عبارات:

يقبّل الأرض، المملوك، بمنّه وكرمه وعبارة يقبّل الأرض لا تكاد تخلو منها رسالة

---

(١) المصدر السابق، ٥/ ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ٥/ ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٣٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ٣٥٦.

إخوانيّة، حيثُ يبدأ رسالته بهذه العبارة، فمن ذلك ما جاء في رسالة بعثها الصفدي إلى علاء الدين علي بن بيبرس:

«يقبّل الأرض ويشكو حظّه من الأيام، وما يجده لهذه الحادثة من الآلام، وما يجرّعه من الغصص لفراق مولانا الذي آنس مقامه حلب، وأوحش فراقه الشام»[1].

ومن ذلك ما جاء في رسالة تهنئة بمولود:

«يقبّل الأرض وينهي أنّ جلس بهذه البشرى على سرر السرور»[2] فعبارة «يقبّل الأرض» بمثابة الباب الذي يفضي إلى الدخول إلى الموضوع الرئيس الذي يطرقه الكاتب، وإلى جانب استخدام هذه العبارة، فهو كذلك يكثر من استخدام عبارة «المملوك»، وهو يستخدم هذه اللفظة ويعني بها نفسه، فمن الرسالة ذاتها: «ومن حرمان المملوك أنّه ما شافه السمع الكريم بالتهاني»[3] فلفظة المملوك توحي بالتواضع ، وإعلاء قدر المرسل إليه وتبجيله ، ومن هذا القبيل ما جاء في رسالة شكرٍ على هديةٍ: «يقبّل الأرض وينهي ورود المرسوم الكريم -أعلاه الله تعالى- فوقف المملوك له قائماً، وقبّل شفة عنوانه اللعساء لاثماً، وتوهّم أن هذا طيف خيالٍ من فرحه، وأنه كان حالماً، ووضعه على رأسه وعينيه، وفضه فقبل الأرض وكرر ذلك، وكأنّ مولانا- أعزه الله تعالى- حاضر والمملوك بين يديه»[4].

ففي هذه الفقرة جمع الكاتب بين العبارات السالفة الذكر من دعاء، وتقبيل للأرض، ووقوف للمملوك، وإلى جانب هذه العبارات ينهي الصفدي رسائله بعبارة «بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى» فلا تخلو رسالة إخوانية من هذه الخاتمة.

ومن الأساليب الفنية التي لا تفارق رسائل الصفدي الإخوانية جمعه بين النثر

---

(١) المصدر السابق، ٣/٣١٨.

(٢) المصدر نفسه، ٣/٦١٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣/٦١٧.

(٤) المصدر نفسه، ٥/٤٢٥.

والشعر، ولعلّ ذلك يعود إلى كون الصفدي شاعراً، إلا أنه يختار من أشعار المشاهير من الشعراء، وتضمينه الشعر لرسائله الإخوانية يقوّي المعنى الذي يرمي إليه نثراً، فمن ذلك ما بعث به الصفدي إلى ابن سيد الناس:-

«تنوح حمامات اللوى فأجيب ... ويحضر عندي عائدي فأغيبُ

وقد ملَّ فرش السقم طول تقلّقي ... عليه بجنبي إذ تهبُّ جنوبُ

ولما بكت عيني نواك تعلمت ... دموع السحاب الغرِّ كيف تصوبُ

أيا برق إن حاكيت قلبي فلم يكن ... لنارك مع هذه الخفوق لهيبُ

ويا غيثُ إن ساجلت دمعي فإنّه ... يفوقك مع ذا أنَّةٌ ونحيبُ

ويا غصن إن هزت معاطفك الصّبا ... فمالك قلب بالغرام يذوبُ

يقبّل الأرض وينهي ورود المثال الذي تصدّق به مولانا منعماً، وأهداه خميلة، فكم شفى زهرها المنعّم من عمى، وبعثه قلادة، فكم أزال درّها المنظّم من ظمأ وأقامه حجةً، على أن مرسله يكون في الإحسان والآداب مالكاً ومتمّماً...»[1].

وجلّ رسائله الإخوانية التي بعث بها إلى أصدقائه بدأت بالمقطوعات الشعرية، وهي تحمل المعنى عينه الذي تحمله الرسالة النثرية، ومن ذلك ما بعث به إلى ابن قاضي شهبه في الاعتذار:-

«أتاني كتابك والجوّ قد ... توشّح من بارقات الغيوم

فهذا يجود بدرِّ الحيا ... وهذا يجود بدرِّ العلوم

وما الدُّرُّ كالدُّرِّ بين الورى ... ولا الزّهر فيهم كزهر النجوم

ويا حسنه وافداً قد غدا ... ينفّس عني خناق الهموم

---

(١) المصدر السابق، ٥/٢٣٨-٢٣٩.

يقبّل الأرض وينهي ورود المشرف الكريم، فوقف المملوك لوروده، وقبّل من سطره وطرسه عذار آسه ووجنة وروده، ومتّع ناظره من جنته الناضرة بحدائق ذات بهجة. . . »[1].

ولم يقتصر الصفدي على تضمين المقطوعات الشعرية التي ترد في مقدمات الرسائل الإخوانية، بل تعدى ذلك إلى تضمين بعض أشعار المشاهير من الشعراء، فمن ذلك ما جاء في رسالة تعزية:-

«فيا أسفي على ذلك الوجه الملّي بالملاحة، واللسان الذي طالما سحر العقول ببيانه فصاحت: يا ملك الفصاحة، واليد التي كم روّضت الطّروس أقلامها، وأنشأت أسجاعاً لم تذكر معها بانات الحمى ولا حمامها، وكأنّ أبا الطيب ما عنى سواه بقوله:-

تعثّرت بك في الأفواه ألسنها والبُردُ في الطرق والأقلامُ في الكتبِ

فرحم الله ذلك الوجه، وبلّغه ما يرجوه. . . وغاب من الإنشاء منه كاتب ليس بينه وبين الفاضل لولا أخوه مثله، أترى ابن المعتز عناه بقوله:؟

هذا أبو العبّاس في نعشه قوموا انظرو كيف تزول الجبال

وما يقول المملوك في البيت الكريم إلا إنْ كان قد غاب بدره، وأفل شهابه، أو غاص قِطْره، وتقشع سحابه، فإنَّ نيره الأعظم باقٍ في أوَجِه. . . »[2].

---

(١) المصدر السابق، ٥/٤٧-٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ١/٤٣٢.

الخاتمة

بعد أن دبَّ الخلاف في البيت الأيوبي واختفت دولتهم آلَ أمر الحكم إلى شجرة الدر التي مهدت الطريق لحكم المماليك وذلك عند زواجها من الأمير عزّالدين أيبك وقد حكم المماليك البلاد فترة ليست قصيرة، وكان أن صادف حكمهم أخطر مرحلة مرت على البلاد الإسلامية ألا وهي غزوات الصليبيين والغزو المغولي، فاستطاع سلاطين المماليك أن يحرروا البلاد من هذين العدوين ويعيدوا الخلافة الإسلامية بعد أن أفل نجمها في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وعلى الرغم من إسهامات السلاطين المماليك في تثبيت أركان الدولة الإسلامية إلا أن فترة حكمهم تميزت بالقلاقل وكثرة الفتن والقتل، ومع ذلك فقد حافظت أسرة قلاوون على الحكم ردحاً من الزمن.

وقد عاصر الصفدي حكّام هذه الأسرة ، وامتدحهم وسجّل بعض انتصاراتهم في أشعاره المتناثرة ، ورثى من قُتل منهم وهنّأ من تسلّم مقاليد الحكم منهم كذلك.

وقد نشأ الصفدي نشأة أبناء الأمراء حيث أُفسح له المجال في تعلُّم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، وكفاه أبوه مؤونة طلب الرزق والعلم حتى استوفى العشرين من عمره، وبعد ذلك جدَّ في طلب العلم والرزق معاً، فارتحل في طلبهما بين حواضر المدن آنذاك، وتلقى الدروس على يد شيوخ كثر كانوا رؤوساً في صناعاتهم من أمثال الشهاب محمود الحلبي، وابن سيد الناس اليعمري، وجمال الدين المزّي وأثير الدين أبي حيان الأندلسي وغيرهم كثير، وهذا أكسبه كثيراً من المعارف حتى بزَّ أقرانه، وتحلّق تلاميذه حوله يزاحمهم الشيوخ الذين تعلّم على يديهم مثل الذهبي والسُّبكي.

كان للصفدي تلاميذ كثيرون من بينهم ولداه المحمدان وابنته فاطمة.

عمل الصفدي في ديوان الإنشاء متدرجاً في سلّم درجاته من كاتب للدرج حتى كاتب السرّ في حلب والرحبة، وهذا العمل مكّنه من تأليف كثير من الرسائل والمؤلفات الأخرى وعندما تقدمت به السن فَقَدَ سمعه وانقطع للإفادة في الجامع الأموي حتى توفي

إثر مرض الطاعون في ليلة العاشر من شوال سنة أربع وستين وسبعمائة هجرية في دمشق ودفن في مقابر الصوفية.

كتب الصفدي في أغراض مختلفة أثناء عمله في ديوان الإنشاء، فأنشأ الرسائل الديوانية على اختلاف موضوعاتها، من تقاليد وتواقيع ومراسيم ومناشير وغيرها من الرسائل التي تصدر بصورة رسمية عن الديوان.

ونظراً لكثرة أصدقائه نتيجة لترحاله بين حواضر مصر والشام كان لزاماً عليه تدبيج الرسائل الإخوانية، مشاركاً أصدقاءه أفراحهم وأتراحهم ، ولهذا الغرض ألّف كتابه ألحان السواجع بين البادي والمراجع.

ولم يكتفِ الصفدي بكتابة الرسالة الديوانية أو الإخوانية، بل تعدّى ذلك إلى كتابة الرسائل ببشارة النيل، حيث تخصُّ هذه الرسائل موسم فيضان النيل وبلوغ المقياس الحدّ المطلوب، وهذا يخصُّ الديار المصرية، وكتب الصفدي الرسائل الوصفية التي كانت رياضة ا لخاطر وامتحان القريحة، فتبادل رسائل وصف المطر والثلوج مع ابن فضل الله العمري التي سُمّيت بالشتويات.

ومن فنونه النثرية كذلك رسائل التقريض والإجازات العلمية، وكان لهذين النوعين من الكتابة الأثر الأكبر في تحفيز النهضة العلمية وتنظيمها في ذلك العصر.

وقد كتب الصفدي في فن المقامات، فقد أنشأ مقامة «رشف الرحيق في وصف الحريق» حيث جسّد فيها وصف الحريف الذي دبّره الفرنج للمسجد الأموي بأسلوب أدبيّ، وله أيضاً مقامة «لوعة الشاكي ودمعة الباكي» وكان أن وصف فيها العشق، والصفدي لم يكتب هذه المقامة إلارياضة للخاطر ومجاراتٍ لأدباء عصره في الغزل بالمذكر.

وقد ألّف الصفدي في فنون نثرية أخرى كانت ذات مساس بعصره، من أمثلتها رسائل حل الألغاز التي تبادلها مع أدباء عصره لامتحان قريحته واختبار ذكائه وقدرته،

ومنها كذلك كتب الصداق التي تكون لعقد قران السلاطين والأمراء وذويهم.

وتميّز نثر الصفدي بطائفة من الخصائص الفنية ، فقد حفل بتوظيف الموروث بشتى أنواعه فيما يدعى بالتناص ، فكثر في رسائله تناصه لآيات القرآن الكريم حيث يُعدُّ القرآن المثل الأعلى في البيان العربي، فوظّف الآيات لتخدم قضايا أرادها ، ولم يقف عند تناص الآيات بل تعدّى ذلك إلى تناص الحديث الشريف والأشعار والأمثال والأعلام والبلدان.

وكان أن ازداد اهتمام أدباء عصر الصفدي بالحلى البديعيّة فجاراهم في هذا الأمر لا بل حمل لواء الجناس وألّف فيه كتاباً أسماه جنان الجناس وإلى جانب الجناس أهتم بالسجع حيث كانت معظم جمله مسجوعة ، وحرص كذلك على أن يطابق في معانيه إضافة للتورية والاستخدام.

وجاءت لغته سهلةً تكاد تخلو من غريب الألفاظ إلا نادراً ، وكانت صوره في جملتها تقليدية اتكأت على التشبيه والاستعارات.

وقد غلب على رسائل الصفدي بنوعيها الديوانية والإخوانية بعض التراكيب والمفردات مثل الجمل الدعائية وعبارة يقبّل الأرض، والمملوك، وهو كذلك يحرص في رسائله الإخوانية على تضمينها شيئاً من الأشعار.

وأخيراً يمكن القول إنَّ النتاج الفكري للصفدي يسهم إسهاماً كبيراً في دحض التهمة التي وجّهت لذلك العصر بوصفه عصر انحطاط علماً بأنّه لا يوجد مبررٌ لنعته بهذه الصفة إلا لجهل مَنْ رموه بتلك التهمة بقدرات أبنائه في الإبداع.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م):

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- الوشي المرقوم في حلّ المنظوم، تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢- امرؤ القيس ، جندح بن حجر الكندي (ت٥٤٠م):

- الديوان بشرح محمد بن إبراهيم الحضرمي (ت٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) قدم له وحققه أنور أبو سويلم وعلي الهروط، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٣- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤- البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد:

- الديوان، تحقيق حسين كامل الصيرفي، دار المعارف، ط٣.

٥-البخاري، محمد بن اسماعيل (٢٥٦هـ- ٨٦٩م):

- صحيح البخاري ، طبعة الأوفست، دار الكتب العلمية - بيروت، بلا تاريخ.

٦- ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبدالله اللواتي (ت: ٧٧٩هـ/ ١٣٩٦م) :

- رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة التراث، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

٧- البغدادي، اسماعيل باشا:

- هدية العارفين، دار الفكر ، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.

٨- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى(٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):

- سنن الترمذي تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية- بيروت، بلاتاريخ.

٩- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) :-

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤م.

-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٥م.

١٠- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:

- الديون بشرح الصولي دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، بلا تاريخ.

١١- الجمحي، محمد بن سلاّم (٢٣١هـ/ ٨٤٥م):

- طبقات فحول الشعراء شرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني- القاهرة، بلا تاريخ.

١٢- ابن حبيب، الحسين بن عمر (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

١٣- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):

-الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.

١٤- ابن حجة، تقي الدين أبو بكر علي الحموي (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م):

- خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

١٥- الحلبي، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م):

- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.

١٦- ابن خفاجة، أبو إسحاق ابراهيم (٥٣٣هـ/ ١١٣٧م):

- الديوان، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف- الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م.

١٧- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):

- تاريخ ابن خلدون، ضبط خليل شحادة. دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، (ط٢) ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨- خليفة، حاجي (ت١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م):

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٩-الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت٢٤هـ/ ٦٤٤م):

- الديوان، تحقيق أنور أبي سويلم، جامعة موتة، دار عمار- الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٢٠- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م):

- ذيول العبر في أخبار من غبر، تحقيق أبي هاجر السعيدين بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٧م.

٢١- ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس):

- الديوان، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب -القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٢- الزبيدي، عمرو بن معد يكرب:

- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جمعه وحققه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢٣- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م):

- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بلا تاريخ.

٢٤- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) :

- الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد العالي سالم مكرّم مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

- شرح شواهد المغني، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت بلا تاريخ.

- شرح مقامات جلال الدين السيوطي، تحقيق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٥- الشماخ، ابن ضرار:

- الديوان، تحقيق صلاح الدين الهادي دار المعارف.

٢٦- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م):

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت، بلا تاريخ.

٢٧- الصفدي:- صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) :

- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبي زيد وآخرين دار الفكر - دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

- تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- جنان الجناس (في علم البديع)، تحقيق سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- غوامض الصحاح، تحقيق عبد الإله نبهان، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.

- الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- لوعة الشاكي ودمعة الباكي، تحقيق عبد الملك الوداعي، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- نصرة الثائر على المثل السائر، تحقيق محمد علي سلطاني، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.

- الوافي بالوفيات، إعتناء هلموت ريتر بفسبادن، ط٢، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

٢٨- العسكري، أبو هلال الحسين بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م):-

- كتاب جمهرة الأمثال حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل - بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٩- ابن العماد، عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة جديدة، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.

٣٠- العمري، ابن فضل الله آحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، يُصدره فؤاد سزكين، (ت١٤٠٨هـ/١٩٨٨م):

٣١- العيني، بدر الدين محمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك حوادث وتراجم (ت٦٤٨هـ- ٦٦٤هـ/ ١٢٥٠م- ١٢٦٥م)، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٢- ابن الغزي، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن:-

- ديوان الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٣٣- القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م):

-الإيضاح في علوم البلاغة، قدّم له وبوبه وشرحه علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

٣٤- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٥- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):

- البداية والنهاية تحقيق أحمد ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٦- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م):

- الديوان بشرح العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة - بيروت، بلا تاريخ.

٣٧- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م):

- شروح سقط الزّند، تحقيق مصطفى السقا و آخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٨- المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):-

- إغاثة الأمة بكشف الغمة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٦م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

- كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، بلا تاريخ.

٣٩- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم (ت ٧١١هـ/ ١٣١٢م):

- لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).

٤٠- الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م):

- مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- لبنان ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ثانياً:- المراجع

٤١- أمين، فوزي:

- المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، دار المعارف، ١٩٨٢م.

٤٢- باشا، عمر موسى:

- أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ط١، (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

- تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، دار الفكر المعاصر بيروت- لبنان، دار الفكر دمشق ط١ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤٣- بروكلمان، كارل:

- تاريخ الأدب العربي، نقلة إلى العربية المشرف على الترجمة محمود فهمي حجازي بالتعاون مع حسين محمود اسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م.

٤٤- بنيّس، محمد:

- ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار التنوير- بيروت، ط٢ ١٩٨٥م.

٤٥- جرار، مأمون فريز:

- أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان - الأردن، ط١، ١٩٨٣م.

٤٦- الحجي، حياة ناصر:

- أحوال العامة في حكم المماليك، شركة كاظمة للنشر والتوزيع- الكويت، ط١، ١٩٨٦م.

٤٧- الحداد، محمد حمزة اسماعيل:

- السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤٨- الخشّاب، مصطفى:

دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧م.

٤٩- الدروبي، محمد محمود:

- الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٠- الزركلي، خير الدين:

- الأعلام، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.

٥١- الزعبي، أحمد:

-التناص نظرياً وتطبيقياً، إربد- مكتبة الكتاني، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥٢- زيدان، جرجي:

- تاريخ آداب العربية، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م.

٥٣- سلاّم، محمد زغول:

- الأدب في العصر المملوكي (الدولة الأولى ٦٤٨هـ-٧٨٣هـ)، منشأة المعارف- الاسكندرية.

٥٤- سليم، محمود رزق:

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

٥٥- الشنتناوي، أحمد:

- دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، يراجعها من قبل وزارة المعارف محمد مهدي علاّم.

٥٦- ضيف، شوقي:

- عصر الدول والإمارات - الشام، دار المعارف، ط٢، بلاتاريخ.

٥٧- عاشور. سعيد عبد الفتاح:-

-العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦م.

-المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.

٥٨- عبد الدايم، عبد العزيز محمود:

- مصر في عصري المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة،١٩٩٦م.

٥٩- العلاق، جعفر:

- الشعر والتلقي(دراسة نقدية)، دار الشروق،عمّان، ط١، ١٩٩٧م.

٦٠-فروخ، عمر:

- تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين بيروت،ط١، ١٩٧٩م. ط٤، ١٩٨٤م.

٦١- القسيي، فايز عبد النبي:

- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، ط١.

٦٢- الكتاني، عبد الحي:

- فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٦٣- المديني، أحمد:

- في أصول الخطاب النقدي الجديد، دار الشؤون الثقافية- العراق، بغداد ط٢، ١٩٨٩م.

٦٤- مفتاح، محمد:

- تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م.

ثالثا:- الرسائل الجامعية:

٦٥- أبو بشير، بسام علي:

- صلاح الدين الصفدي حياته وآثاره، أطروحة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة الجزائر مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

رابعاً:- الدوريات

٦٦- اصطيف، عبدالنبي

- التناص، ظاهرة قديمة، راية مؤتة، ج٢، ع٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٦٧- الدروبي، سمير:

- ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٨- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

- مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق، تحقيق سمير الدروبي، مجلة البلقاء، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦٩- عباس، إحسان:

- صلاح الدين الصفدي، مجلة العربي، العدد السادس عشر، رمضان ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
- الإهداء	أ
- ملخّص باللغة العربية	ب
- ملخّص باللغة الإنجليزية	ب
- **المقدمة**	١
- **التمهيد**	٣
-الحياة الاجتماعية	٣
- الحياة الثقافية	٨
- الحياة السياسية	١٦
- **الفصل الأول**	٢٤
- **صلاح الدين الصفدي كاتب**	٢٤
-اسمه	٢٤
-ألقابه	٢٥
-كنيته	٢٧
-ولادته ونشأته	٢٨
-ثقافته	٣١
-شيوخه	٣٣
-تلاميذه	٣٨
-آثاره	٤٠

- رأي العلماء فيه ٤٥
- وفاته ٤٨
- **الفصل الثاني** ٤٩
- **الدراسة المضمونيّة لنثر صلاح الدين الصفدي** ٤٩
- **الرسائل الديوانيّة** ٤٩
- التقاليد ٥١
- التواقيع ٥٧
- المراسيم ٦٠
- المناشير ٦٢
- البشارات ٦٥
- **الرسائل الإخوانيّة** ٦٩
- رسائل الشوق والحنين ٧٠
-رسائل التهنئة ٧٤
- رسائل المدح والشكر والسرور ٧٧
- التعزية ٨٠
- أجوبة التعازي ٨٣
- العتاب والاعتذار ٨٤
- الألغاز ٨٧
- الإجازات ٩٢
- **الرسائل الوصفيّة** ٩٧

- المقامات ١٠٣
- فنون نثريّة أخرى ١١٨
- **الفصل الثالث** ١٢٣
- الدراسة الفنيّة لنثر صلاح الدين الصفدي ١٢٣
-التناص وتوظيف الموروث ١٢٣
-تناص آيات القرآن الكريم ١٢٥
-تناص الحديث النبوي الشريف ١٣٠
- تناص الشعر "حلّ المنظوم" ١٣٤
- تناص الأمثال ١٤٠
- تناص الأعلام والبلدان ١٤٢
- الطباق ١٤٤
- السّجع ١٤٩
- الموازنة ١٥٢
- الجناس ١٥٤
- اللغة والأسلوب ١٥٩
- الصورة والخيال ١٦٣
- أساليب فنيّة أخرى ١٦٨
- الخاتمة ١٧٢
- المصادر والمراجع ١٧٥
- فهرس المحتويات ١٨٦